الدكتور نسيم الخوري

المقابلة الصحافية

فن - تواصل - إعلام



دار المنهل اللبناني

المقابلة الصحافية

فن، تواصل، إعلام

د. نسيم الخوري

المقابلة الصحافية

فن، تواصل، إعلام

دار المنهل اللبناني



دار المنهل اللبناني

- حقوق الطبع محفوظة
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩م ـ ١٤٣٠هـ
- الكتاب: المقابلة الصحافية: فن، تواصل، إعلام
- المؤلف: د. نسيم الخوري
- الناشر: دار المنهل اللبناني -

بيروت ـ النويري، سنتر حمادي ـ ط٦ـ Bloc-B

هاتف: ٦٣١٦٥٤ (٠١) - خليوي: ٩٢٠٩٣٠ (٧٠)

- التوزيع: مكتبة رأس النبع

بيروت ـ رأس النبع ـ شارع محمد الحوت

تلفون: ٠١/٦٣١٦٥٤ ـ ٧٠/٩٢٠٩٣٠ ـ تلفاكس: ٠١/٦٣٣٤٣٢

المقدّمة

كيف يكون العلم فناً؟

عندما تغرز قلمك في مسائل متغيّرة كبيرة البساطة وشديدة التعقيد مثل: فن المقابلة أو المقابلة الصحافية، أو فنون العلاقات بين البشر. وإليك هذا الحوار القصير:

- أنا جائع.
- لا تبدو الحاجة في وجهك إلى درجة تمنعك من شراء ما تريد أكله!

قال: سيّدتي، لكن من المحزن جداً أن أتناول العشاء وحدي.

وهنا نسأل نحن: هل يبحث عن العشاء، أم عن حوّاء تقاسمه عشاءه وتشاركه جوعه، أم يبحث عن لذته في كشف نفسه بمعنى مقاربة أناه أي الـ Ego وتعريتها كذات إذ يعرّي الآخر وذاته، أو يتعرّى أمامه؟.

نحن هنا في قلب البحث عن فن المقابلة الفجّة بمعنى

التواصل في ما ما بين الناس، وخصوصاً في ما بين الجنسين. يكفينا التأمّل بمدى الاختلافات في المحيا والشكل بين الناس إذ لا يشبه أحد الآخر. وحتّى ولو خلق من الشبه أربعين، تبقى هناك بصمات تفرّق الواحد عن هذا الآخر مثل بصمة العين وبصمة الإبهام وبصمة الصوت وبالطبع بصمة الدم وكلّ ما يرتبط بالحواس والملامح والحركات وفي رأسها جميعاً العقل الذي عمّق الطلاق بين الإنسان والكائنات الأخرى.

مهلاً! نحن هنا نبدأ برفع القشرة عن مصطلح التواصل الذي يفترق كثيراً عن الاتصال الذي هو غير الإعلام كلياً، وعلى الرغم من الخلط الذي يقع فيه منظرو وخبراء الإعلام بين هذه المصطلحات الثلاثة الأساسية في اللغات الشرقية، فإنَّ الغربيين قد يقعون في مطبّ الخلط نفسه مع أنَّهم لا يفرّقون لغوياً بين التواصل والاتصال.

يسعفنا هذا الحوار القصير في البحث عن «الإيروس» Eros أي غريزة الحب وفقاً لسيغموند فرويد، وفيها مبدأ اللذة في العلاقات بين الواحد والآخر، وهو مبدأ معقد يكاد يكون في قلب البحث عن الشبكات العلائقية اللامنتهية بين الناس والتي تتخطى كلّ علم.

هكذا يتحرّك الإنسان طيلة حياته، إذن، يفتش ويبحث. ما هو ومن هو هذا الذي يبحث عنه هذا الكائن الوحيد المزوّد بطاقات هائلة، ومخيلة خصبة غنيّة يسافر بواسطتها في الصحاري الواسعة اللامنتهية من البشر؟.

فعلاً عمّ يبحث الإنسان في تاريخه الطويل؟.

«إنّه يبحث عن الحداثة»[1]، كما رأى الشاعر الفرنسي بودلير الذي لم يصب في جوابه هذا، **أوّلاً** لأنّه لم يفسّر تلك الحداثة إلاّ عبر تعظيم المخيلة الشعرية والإبداعية، **وثانياً** لأنَّ توحّد المبدع وعزلته أو انقطاعه عن العالم بهدف الإبداع، وإعادة بناء العالم عن طريق الكتابة الشعرية وغيرها من الفنون الأخرى، يضمر النية في إلغاء الآخر وإخراج الإنسان من اجتماعيته. وليس بعيداً عن بودلير، قول الشاعر فلوبير: «نحن نعيش في صحراء لا يرى الواحد فيها الآخر». يمكن أن يكون قد أصاب إذا اعتبرنا بأنَّ الحداثة توازي التغيير الدائم والإبداع والكشف عبر التماس العاطفة والعقل ركيزتي الإنسان والصفات الإنسانية.

نحن نعتقد بأنَّ ألفرد دوفيني قد أصاب بوصيته في «الإنخراط في الجماعة بهدف العمل Agir ومن ثمّ الانسحاب منها للتفكير Refléchir»، لأنَّ الإنسان يبحث بالأحرى عن الإنسان الآخر ولربّما هو يبحث عن ذاته في بحثه عن الآخر.

يتوخّى هذا الكتاب، البحث في منطق العلاقات بين الأشخاص، وبالتحديد في منطق المقابلة بمعناها الصحافي المهني. وهو ينقسم إلى جزئين لا ينفصلان إلاّ من حيث طريقة المعالجة والتوجه. الأوّل يضع قواعد الاتصال بمعناه الواسع أي

---

(١) Nassim Khoury, Introduction à la modérnité arabe, ed. Dar alhadatha, Beyrouth, 1986, p. 7.

الذي يتناول التواصل والإعلام، كما يعود إلى قاعدة الاتصال الذهبية في تقديس المثلثات حيث الواحد زائد واحد يساوي ثلاثة ومئة وليس اثنين، كما إلى ركائز المقابلات الأولى ذات المضامين الدينية والفلسفية والتي قد تستعين بمفاهيم الرياضيات الحديثة التي تقفز فوق التقليدية منها، وتفتح الإمكانيات في تقاطع الناس والأشياء إلى ما لا ينتهي، وبما يوصلنا إلى حدود اللعبة في العلاقة. وتبدو المقابلة، على هذا المستوى، غير منضبطة، وربّما غير موضوعية في حدودها القصوى، ولهذا تفرض صفتها كفن أكثر وأقوى من مصطلحها كمقابلة.

أما القسم الثاني، فهو بحث في المقابلة الصحافية بالمعنى المهني، وهو قسم صالح جدّاً لطالبات وطلاّب كليّات الإعلام كما للمتخرجين والمبتدئين في حقل التعاطي بمهنة الإعلام أو الإعلان أو العلاقات العامة.

القسم الأوّل ذو طابع نظري مكثّف، والثاني تطبيقي يستل نصوصه من الخبرة والتجربة الشخصية المعاشة في العمل الصحافي: من تنضيد الأحرف في المطبعة إلى محرر وأمين تحرير ومدير تحرير ورئاسة تحرير أكثر من مؤسسة صحفية إلى عضو مجلس إدارة تلفزيون لبنان، واستهلاك أكثر من ربع قرن من التعليم الجامعي، وإدارة كلية الإعلام والتوثيق مع من يشغلون من طلاّبي اليوم حيزاً واسعاً في الشاشات العربية والحياة العربية المعاصرة.

الدكتور نسيم الخوري

٢٠٠٨/٤/٢٤

الفصل الأوّل:

جذور المقابلات وأبعادها

أوّلاً: المقابلة وقاعدة الأرقام

ذكرنا أنَّ واحد زائد واحد، بما نحن في صدده، يساوي ثلاثة. الثلاثة هو الأساس، وحدود جذره الأوّل هو العدد واحد الذي يخرج من الصفر أو من العدم، بينما حدود جذره الثالث هو العدد ثلاثة الذي يغطي الكون بفعل التكاثر، وما بينهما هناك العدد اثنان الذي يعني المشاركة والشريك.

نشعر، هنا، بضرورة إعادة قراءة هذه الرموز التي استغرق فيها الفكر الفلسفي قروناً طويلة، وذلك على ضوء مشتقات الاتصال الحديثة، لا سيّما وأنَّ الأرقام كما هو متعارف عليه، مسألة ليست تجريدية وحسابية، بقدر ما هي رموز للأشياء والكائنات أخضعها العقل الرياضي إلى عمليات محدودة أربع هي الجمع والحذف والقسمة والضرب.

ولمّا انفتح العقل على الرياضيات الحديثة والاحتمالات التي لا نهاية لها ولا يحدّها عقل (١٠١٠١٠)، باتت الأرقام لا تنتهي تماماً في تفاعلها، فغدت مثل العلاقات البشرية والملامح والأمزجة التي لا تحدد ولا تنتهي أيضاً.

١ ـ الرقم الإلهي

ونعني به الرقم واحد الذي يرمز إلى فكرة الله الواحد الأوحد في الديانات التوحيدية حيث لا إلٰهاً إلاًّ هو: **﴿وإلهكم واحد لا إلهاً إلاً هو﴾** (البقرة: ١٦٣). هو أساس التعدد الذي يولد من ذات الله الأولى وبمشيئته. وقد أسماه الكنعانيون إيل أب البشر، وعلامته الشمس أو النار، ويرمز إلى الموحد غير القابل للتجزئة. ومعناه في أبجدية كنعان الثور وهو مقدس لم يعبدونه، بل به كانوا يرمزون إلى القوة والألوهية، وفي أبجدية العبرانيين، مثلاً، يتطابق الواحد مع حرف N الذي يمثل رجلاً يرفع يده إلى السماء ويشير بالثانية إلى الأرض مبدأ الحياة.

وكانوا يؤشرون في الكتابات القديمة إلى الرأس بمعنى واحد، وهو ما زال شائعاً حتى اليوم حيث نقول راس غنم، وغيرها بما يسمونه حبة في بلدان الخليج. الواحد هو المدبر الأعلى، وهو رمز الروح الأول الأزلي وخالق الصفر.

٢ ـ إيقاظ الصفر

بهذا المعنى نتناول يقظة الصفر، فنراه رحم الأعداد وأكثرها تبسطاً واستعمالاً. له بعد أزلي، وهو أساس الخلق، إليه ترتكز الأعداد كلها إذ يحمل قوّة الاستمرارية، فيبدأ منه كلّ شيء وفيه ينتهي كلّ شيء ما خلا خالقه.

لا قيمة له وحيداً سوى دلالته على العدم الذي منه قد

يكون خرج الكون ونما. وإذا كان اللاوعي العربي يرفضه لأنَّه حمل اسم شهر في الجاهلية الأولى ورمز إلى النحس، فإنّ المصريين القدامى كانوا يرفعون الصفر رمزاً للتجدد، وهو يمثل الطاقات كلها لأنه يختزن ما في جوف البيضة الكونية قبل تشظيها وتفجّرها. اعتبر الخوارزمي مخترع الصفر أنَّه رمز يمثل الله الذي لا بداية ولا نهاية له، وكما لا يمكن للصفر أن يقسّم أو يتضاعف كذلك الله لا ينقص ولا يزيد.

ولو أخذنا قاطنو المكسيك، مثلاً، جيران الولايات المتحدة الأميركية، لوجدنا الصفر رمزاً متجدداً وتوالداً موسمياً دائماً يرسم على شكل حلزون. والمعروف بأنَّ الروح تُنفخ في الوليد عن طريق صرّته الحلزونية الشكل لا عن طريق حواسه المتأخرة وفيها الفم والأنف ومسام الجلد.

نحن نعرف بأنَّ الصفر خرج من احتقاره، واتّخذ في ألعاب الاتصال والأطفال وفي أنظمة وسائل الاتصال قيمة كبرى وصلت إلى حدود الأسطورة مع ما يُعرف بالبايت Bits. ولهذا صار الصفر يحمل الحماية ودورة الأيام اللامتناهية والكل الميّال إلى الملآن أكثر منه إلى الفراغ.

٣ ـ رقم عشتروت

أو العدد إثنين ونعني به المذكّر والمؤنث علتي الوجود، حيث معاني الرفيق والشريك وهو أساس العالم. قال الرب لنوح: «منّ كل حي من ذي جسدٍ اثنين من كلّ تدخل التابوت

لتحيا معك ذكراً وأنثى تكون» (٢٣: ٦). يرمز إلى الشر في بلاد الهند ولدى العبرانيين لأنَّه عدد سلبي ونسائي كما ورد في سفر التكوين وحيث «أنَّ الربّ الإله خلق المرأة في المرّة الثانية» (٢٣: ٢). اعتبره الكنعانيون رمزاً للمعرفة واتحاد الرجل والمرأة في مصير واحد. إنَّه رقم عشتروت حيث فنون اللقاء.

ويذكر في سفر التكوين أنَّ لوطاً ضاجع ابنتيه اللتين سقتاه خمراً وحملتا منه، وكان للكبرى صبياً هو مؤاب وهو أبو الموآبيين وللصغرى التي وضعت صبياً سمته نعمي هو آبة بني عمون حتى اليوم (١٥: ٣٥ ـ ٣٨).

وجاء في سفر التكوين عن وجود أمّتين في جوف رفقة (٢٣: ٢٥) أي طفلين ينذران بعداوة الشعبين الشقيقين. ويتألف التلمود من الميشنا التي تعني التثنية والترديد والجمارة أو شروحات الميشنا والتعليقات عليها بما أورث تلمودان واحد أورشليمي وآخر بابلي.

ويرمز العدد اثنين في المسيحية إلى الصليب المؤلف من خشبتين. ويوري القسمة باعتباره ممثلاً للمادية الأخلاقية في الوحدة الجسدية، وباعتبار الطبيعة الناسوتية الثنائية للسيد المسيح الذي هو إله وتجسّد بإنسان يفدي الخطايا البشرية بموته. وتكلّم لوقا عن حمامتين ويمامتين (٢٤: ٢)، كما عن سيفين لبطرس (٣٨: ٢٢) وملاكين شهدا صعود السيد المسيح (١٠: ١) وشاهدين وزيتونتين ومنارتين في رؤيا يوحنا (٣: ١ ـ

٤) وتحدث عن سمكتين في أعجوبة كسر الخبز (١٩ : ١٤) كما تكلم عن صلب لصيّن مع السيّد (٣٨ : ٢٧).

٤ ـ مبدأ الثالوث

تتقارب الألفاظ للرقم ثلاثة بين shalocha بالعبرية والـ telatha بالأرامية والـ telacha بالسريانية، ويصبح الثالوث حجر الرحى في فنون العلاقات والمحور الأوسع في فصول الأرقام.

هناك ثالوث الجماد والسوائل والغازات، قائم في نسغ الطبيعة الحيّة حيث القشرة واللب والبذرة التي تبعث الولادة والحياة والموت تُطبق على الكائنات الكونية أي الإنسان والحيوان والنبات، فتحرّك اليبوسة في الكون عن طريق الجسد والعقل والروح. ونشهد ثالوثاً زمنياً بين ماضٍ وحاضر ومستقبل. كان الرقم ثلاثة هو العدد الذهبي الأرقى وهو الرمز الذي يختزن الكمال والتكاثر، وله احترام هائل لدى الكنعانيين وفي مجمل الديانات والأفكار، وهو الذي سحبته الآلهة من لقاء أب البشر بعشتروت وأسمته آدوناي أو تمّوز. وكان أيضاً عدداً مقدّساً عند الساميين لأنَّ الكون جاء من أرضٍ وسماءٍ وبحار. وكان يكتب الرقم هكذا ١١ وليس كما عند الرومان ١١١. وكان له رسم يمثل العرمة والكومة والثلة بمعنى التجمع والكثرة، وعنها أخذ الساميون الثلاثة. وكان آلهة البابليين ثلاثة آنو للسماء وبعل للأرض وأبا للمياه.

في إنليل وإيبانا ودوموزه، نجد الثالوث السومري. ويقال

بأنَّ الثالوث قد انتقل من جبيل إلى مصر فصار اسمه هناك: أوصوريس وإيزيس وهوريس. وكان الفرس قد أعلنوه بآهومازدا، فوهومينو، أشفاهيستا، وأسموه في الهند بالبراهما أي الخالق وفيخنو أي المحافظ وسيغا أي المخرّب. وكانت فصول مصر القديمة ثلاث: فيضان النيل والزرع والحصاد. ناهيك عن الأدب اليوناني الذي فتن العالم بثالوث الجمال أو ربّات الجمال الثلاث.

تلك مسائل تشهد كلها على وحدانية الله والأديان التوحيدية الثلاثة الكبرى أي اليهودية والمسيحية والإسلامية كما إلى العهود الثلاثة.

لليهودية أو لأبناء موسى ركائز ثلاثة هي: الأرض والشعب ويهوه. وأبناء البشر ثلاثة هم: سام وحام ويافث، والأجناس البشرية ثلاثة ألوان: الأبيض والأصفر والأسود. وغالباً ما كان العبرانيون يشددون على أمر بالتوكيد عليه ثلاث مرّات كقولهم: هيكل الرب، هيكل الرب، هيكل الرب (أرميا ٧:٤) أو يا أرض، يا أرض، يا أرض (أرميا ٢٩:٢٢) أو قدوس، قدوس، قدوس (أشعيا ٢:٦). وتسرد الميثيولوجيا العبرانية بأنَّ الرب طرد آدم من الجنة بعد ساعات ثلاثٍ على قضمه التفاحة المنهى عنها التي ناولتها إياه حواء. وكانت حواء عشيقة الملك صموئيل في الوقت الذي كان فيه آدم ينام بين أذرع ليليت. ومن هذه الثلاثية في الحب، أي بين آدم وحواء، وبين آدم وليليت وحواء وصموئيل ولدت الإنسانية. وليليت

خلقت من التراب مثل آدم قبل أن تخلق حواء من ضلع آدم. وعاشت ليليت على هواها في الحب بعد خلافها مع آدم، وما تقاتل قايين وهابيل سوى للحصول على ليليت التي لا تمتّ لهما بصلة قرابة، لكنها عدوة حواء ورمز الحب غير الشرعي.

وحول واقعة السبي البابلي، وتدمير هيكل سليمان، ينقل عن التلمود أنَّ نبوخذنصّر حاول معرفة نتائج حملته قبل المباشرة بها، فرمى سهمه نحو الغرب والشرق، فسارت السهم في اتجاه أورشليم، ورماه في المرّة الثالثة للتأكد من مكان وقوع المدينة التي وجب تطهيرها من الأرض، فاتجه السهم أيضاً نحو أورشليم. والمعروف أنَّ المحافل الماسونية ترتكز إلى أعمدة ثلاث هي أعمدة القوة والحكمة والجمال.

وفي المسيحية يرتكزون، أيضاً، إلى ثلاثة أقانيم في الذات الإلهية: الآب والابن والروح القدس.

ركع أمام مغارة يسوع ثلاثة ملوك مجوس هم الآشوري بالتازار والعبري مليكور والهندي غاسبار وهم من أبناء سام وحام ويافث. وكان السيد المسيح يفضل صحبة ثلاثة رسل هم يوحنا ويعقوب وبطرس والذين يعتبرون أعمدة الكنيسة الثلاثة (متى: ٣٦:٢٦). وسأل السيد المسيح بطرس أتحبّني ثلاث مرّات (يوحنا ١٧:٢١). وأنكر بطرس معلمه ثلاث مرّات قبل صياح الديك (متى ٣٤:٢٦)، وأجابه يهوذا ثلاث مرّات: أصلبه. وعلى طريق الجلجلة، سقط السيد ثلاث مرّاتٍ، ودقوا

في جسده ثلاثة مسامير، وأسلم الروح بعد ثلاث ساعاتٍ من النزاع، وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وظهر السيد المسيح على تلاميذه ثلاث مرّاتٍ بعد تسليم الروح (يوحنا ١٤ :٢١)، وتجذرت المسيحية وانتصرت بعد قرون ثلاثة على قيامة السيد.

ونجد في رؤيا يوحنا أنَّ للشيطان محطات ثلاث في تاريخ البشر أوّلها مع آدم وحواء (يوحنا ١٢ :٩) والثانية محاربة المسيح والمسيحية عند تأسيسها (١٢ :٤ ـ ٥)، والثالثة في اليوم الآخر بعد حكم المسيح والكنيسة (٧: ٢٠ ـ ١٠). ويعتقد المسيحيون أن رأس القديس بولس قد قفز ثلاث مرّات بعد جزّ عنقه بالسيف، وانبثق ينبوع ماء في مكان كلّ قفزة ليصعد إلى السماء الثالثة بعد موته. وفي المسيحية تعداد لثلاثة فضائل للاهوتيين هي محبة النفس والآخر، الأمل بالحياة الثانية والإيمان بالخلاص. ويشهد تراث المسيحيين الشرقيين الذين يرسمون إشارة الصليب بالإبهام والسبابة والوسطى بأنَّ الشمس تغيب في يوم الفصح المجيد وتظهر في ثلاث قفزاتٍ خاطفة. ولا يتصفّى الراهب إلاَّ بنذور ثلاثة هي الفقر والعفة والطاعة. وهناك من يربط في بلدان الهلال الخصيب بين البرق والرعد والقديسين الثلاثة إلياس وجرجس والخضر. يحدث البرق من تحت حافري حصان الخضر فوق الصخور، ويبعث إلياس الرعد إذ يقود عربته النارية عبر السماء، وجرجس يمتطي حصاناً وبيده رمح ثلاثي الرؤوس يقتل به التنين.

عبد سكان جزيرة العرب، بعد الطوفان أصناماً ثلاثة هي صدا، صموداً وهراً، وكان لهم ثلاث آلهات اللات أو القمر المنير، والمناة أي القمر المظلم، والعزي أي الاثنين معاً.

ولدى المسلمين اتحاد للسماء والأرض والإنسان ثلاثاً في الكائن الأعظم. ولهم القرآن الكريم والسنة والفقه. وتعتبر الأدلة الشرعية للمجتهد ثلاثاً: الكتاب والسنة والإجماع. وهناك العهود الثلاثة حيث أخذ العهد الأول على جميع ذرية آدم الإقرار بربوبية الله (الأعرف: ١٧٢)، وخص العهد الثاني بالنبيين أن يبلغوا الرسالة ويقيموا الدين (الأحزاب: ٧)، أما العهد الثالث، فقد خصّ به العلماء تبليغ ما تلقوه عن الأنبياء. وتسبح الروح عند المسلمين ثلاثة أيام فوق الميت. وتستمر التعزية ثلاثة أيام.

ويحكى عن رسول الله أنَّه كان يخطب في المؤمنين مستنداً إلى جذع نخل، إلى أن صنع له منبر من درجاتٍ ثلاث. ويعتقد المسلمون بأنَّهم يملكون ثلاثة من أحجار الجنة: الحجر الأسود، المقام، وحجر بني إسرائيل. وعند الطلاق يقول المسلم لزوجته: إنت طالق ثلاث مرّات.

وبقيت الحضارات ترتقي وتتبدّل، لكنَّ الثالوث بقي ثابتاً في الذهن البشري حيث الحرية والمساواة والإخاء رمز الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، والسلطات المعاصرة ثلاث في البلدان الديمقراطية التشريعية والتنفيذية والقضائية، ودرجات الأحكام ثلاث: في البلدان الديمقراطية التشريعية والتنفيذية والقضائية،

ودرجات الأحكام ثلاث: بداية واستئناف وتمييز، حتى أنَّ عصر اقتصاد المعرفة الذي نشهد تأثيراته وتداعياته على الفكر البشري في هذه الألفية الثالثة، نراه مدموغاً بالثالوث المعروف www.

لقد استفضنا في موضوع الأرقام بقصد ما ذكره الفيلسوف الألماني شبنغلر الذي رأى أنَّه «منذ ديكارت بدأ اختلاف مفهوم الأرقام نهائياً كما عرفه الفلاسفة الإغريقيون. وهذا ما أثَّر في تطور الفكر الرياضي الحديث. وقد انصبّ الاختلاف على الوظيفة الرقمية التي أضحت تفاعلية من حيث مواقعها». وفي فصل «الأرقام ومعانيها». يرى شبنغلر «أنَّ تطور الرياضيات تحوَّل إلى صراع خفي طويل، مقتصر في النهاية، ضدَّ مفهوم الكميَّة، فالوظائف الرقمية إشارات مركبة» لا تعني خصائص الكمية والشكل. . . وإنما لا نهاية المواقع المحتملة للرقم نفسه، الذي ليس هو رقم إلاَّ في النظر إليه كوحدة في مجموعة[(١)]، وهنا ننفذ إلى علوم الاجتماع، بالطبع، لندرك تاريخية التفاعل التي حولت الرياضيات من القيمة إلى المتغيرات.

يبدو أنَّ المعرفة باتت ألكترونية قائمة على نقرة بسيطة بسبابتك فوق رأس الفأرة أو الماوس للدخول إلى خزائن المعرفة وأسواقها في الدنيا وباللغات كلها.

---

(١) Spengler Oswald, le déclin de l’occident, vol 1, Forme et réalité, trad. Tazerout, Gallimard, Paris, 1945, p.p. 85-86.

لماذا الفأرة أو لماذا العنكبوت؟

قبل الإجابة على هذا السؤال الذي يصبّ في المقابلات الصامتة عبر الشاشات المنتشرة في العالم والتي تكاد تحدد ثقافة البشر المعاصرة، نتطرّق إلى أمرين أساسيين أولهما الجذور الدينية والفلسفية للمقابلة والتي لها تأثيرات أساسية في تحديد الشخصية وأنماط الاتصال، وثانيهما البحث في تعريفات التواصل ومشتقاته ومعانيها وأبعادها المختلفة.

ثانياً: جذور المقابلة

فن المقابلة أو الاتصال اللغوي وغير اللغوي ذات جذور فلسفية ودينية وقبلهما طابع التفاعلية بين الوجود والموجود بهدف تفاعلهما. إنَّه بحث في قدم القواسم المشتركة وطريق المعرفة مرادف للإنسان مادياً وصورياً في تلمس خيوط تغييره أو ارتقائه من الحس إلى العقل فالذات، انعكاساً للكون في المنهج التواصلي. ولقد بقي الإنسان، بالرغم من سيطرته الكاملة على الوجود، في سباق مع تراكمات هذه الاتصالات التي تساوي الزمان بالمعنى المعرفي. اللغة اتصال وهي، بهذا المعنى الحياة في وعيها الأول.

لقد حصر فندريس البشرية بأمرين: اليد واللغة، وهما يفصلان بين نهاية التاريخ الحيواني والبشري. وأعتبر أنَّ اللغة حياة، وهي كذلك، لأنَّها تظل خاضعة للحياة التي لا تنتهي إلى حد. إنَّها الحياة لأنَّها هي الاتصال، والكلمات لا تحيا في

الحقيقة، بل العقل هو الذي يحيا ويغير المعاني والأسماء والمفاهيم[1].

لا تعني العودة إلى هذه الينابيع الأولى في الاتصال بحثاً في أصول اللغة وهي من مهمات المؤرخين، بقدر ما هي تلمس خطوات الإنسان الأول التي تثبت المقابلة حياة وما قبلها أمور منوطة بالشك في المستوى المعرفي وحري بها أن تبقى «تكمرها» الأساطير.

ولأنَّ اللغة والمقابلة حياة أي حركة في المساحة فافتراض لإمكانيات التغيير، ليس غريباً القول أنَّه يوجد من اللغات في المقابلات مقدار ما يوجد من الناس أفراداً ولغات مشتركة وخاصة ولهجات. . . إلخ.

ويعتبر التغيير أساساً ثابتاً منذ اليونان يتبدَّل بتبدل المكان حيث الزمان مقياس التبدل للأشياء في أبعادها الثلاثة، والإنسان هو البعد الرابع حامل الزمان الحي ـ الميت في آن حتى مرحلة دخوله الفساد بالمعنى الفلسفي، فتنشأ مرحلة تحويلية جديدة تكون قد بدأت.

يرتبط، إذن، التغيير المرادف للتطور بالإنسان ـ اللغة ـ الحياة على المستويين المادي والذهني، وهذا يعني الإنسان

---

(١) فندريس (جوزيف). اللغة، تعريب عبد الحميد الداخلي ومحمد القصاص. مكتبة الأنجلو مصرية. معربة، القاهرة، ١٩٥٠، ص: ٦.

الذي لا حدود لصفاته، والكائن الأكثر قوة وتفوقاً في العالم، لا يعامل على اعتباره قدراً، بل بصورة تغييرية دائمة التغيير، ولا يُعامل سلبياً، بل بإيجابية مطلقة، يعيد تكوينه بشكل واعٍ وهادف لا على نحو أعمى، لأنَّ «الإنسان ـ الاتصال بالمعنى التغييري الصاعد هو سيد العصور والكون، وهو على وجه الدقَّة المسيطر «الوحيد» على الكواكب والمغير الوحيد لمعالمها وصورها»[1].

تعتبر هذه السيادة الشاملة للإنسان أو النزوع نحو السلطة المطلقة في إدارة دفّة التطور نتيجة حتمية لاتخاذه ذاته محور الفعل المتغير في الكون والذي يركز على «سعادته»، إذ لا قيمة لأمر ما لم يسخَّر لخدمة الإنسان واستقلاله، وهذا هو المبدأ الأساسي في فعل التغيير.

يركز المبدأ الثاني على الإنسان إذن، لكن ليس في الفراغ أو الفضاء بل في الاتصال بالآخر كائناً اجتماعياً مستقلاً. يتعامل مع العالم في بحث دائم مستمر عن عالم دائم الحاجة إلى البحث أي إنسان الإبداع. الإنسان وفقاً لهذه التسمية ليست ماهية أو وجوداً، بل طاقة هائلة في الاتصال[2].

---

(١) نسيم الخوري: «العرب والتغيير والغير»، ڤيينا، النمسا، ٤ ـ ٧ نيسان/ أبريل ١٩٨٥. محاضرة ألقيت خلال المؤتمر العالمي لفكرة الإنسان من أجل الاستقلال والسلام، وبدعوة من المعهد الدولي لفكرة زوتشيه الكورية أو ما يعرف بسيادة الإنسان.

(٢) نسيم الخوري، فنون الإعلام والطاقة الاتصالية، دار المنهل =

وتمنحه هذه الطاقات أبعاداً هائلة للسيطرة على العالم، ولأنَّ الإنسان منذ أن كان آدم كان فعل تحقيق لتلك الطاقة الاتصالية.

١ ـ بين شهيَّة آدم والشهيَّة الألكترونية

نباشر من النصوص المثقلة بالأساطير والتي تقول بأنَّ المقابلة الأولى التي قام بها الإنسان الأول، كانت مع الخالق قبل أن يتُم طرده من السماء. وجاءت المقابلة الثانية بين آدم الساقط في حفرة الأرض يتآكله الفعل الخاطىء وحوّاء التي نفخها من ضلعه أو من عضوه، كما يرى أهل التلمود، ليحمل في ذريته جزءاً من الخلود وما عاد لملكه انتهاء. هكذا سلخت حواء من رأس آدم بالخطيئة وزرعت النسيان، لتنفتح المعرفة الكليّة من قضمة التفاحة الأسطورية تحت أسنان آدم في مناح من غواية حوّاء إلى لا نهائية المعرفة واللقاءات والسلطات الاتصالية. ولقد استقى خالق الكومبيوتر فكرة التفاحة، وبتنا نلاحظ في مجالات صناعة الكومبيوتر أنَّ النصوص الألكترونية التي نراها على الشاشات تستخدم صورة التفاحة المقضومة تحت أسنان آدم.

لماذا التفاحة ولماذا هذه المحطة وما معنى رمزها المعاصر؟

= اللبناني، ٢٠٠٥. وفيه نظرية متكاملة حول مفهوم هذه الطاقة المتنامية.

لأنَّ الشاشة تتماهى بالخالق في المعرفة والتكاثر والاتصال، وإذا كانت المقابلات بأبعادها الأسطورية والدينية والاجتماعية قد شكلت المحطة الأولى التي منها تدفقت العلاقات في مجاري التاريخ، فإنَّ المحطة الثانية التي توازيها تتطلع إلى مساواة الإعلام بالله والشاشة بالسماء وتفاحة آدم وحواء بتفاحة ماكنتوش. كيف؟

عام ١٩٨٤ وزّعت شركة Apple(١) الأميركية أول كومبيوتر شخصي معروف بـ «ماكنتوش» كان يحتوي على ذاكرة ١٢٨ كيلو بت bits ومرقاب متكامل أي Monitor وفأرة. وكان أول كومبيوتر كبير يقوم باستخدام تداخل الأوامر الذي كان سائداً في الأجهزة الأخرى. واعتبر الماكنتوش مخاطرة كبيرة بالنسبة إلى شركة Apple لأنَّ برنامجه ما كان يتوافق مع I.B.M بالإضافة إلى ذاكرته المحدودة. وقد أصبح هذا الجهاز كثير الاستخدام من قبل مصممي الإعلانات ودور النشر مما سمح له الانطلاق في اتجاه ثابت محدد.

وقد كانت الشركة Apple من أوائل الشركات المعروفة في هذا المجال. فقد وضعت عام ١٩٧٧ بالإضافة إلى شركتي «كومودور» و«تاندي» أول كومبيوتر شخصي تمَّ تجميعه كاملاً وأصبح سائداً في استعماله في المكتبات العامة والمدارس وأماكن العمل بعدما روَّجت له Apple ووزَّعته بشكل واسع رغم حجمه الكبير(٢).

---

(١) أي: التفاحة.

(٢) سناء حمُّود خطَّاب: ألف باء الكومبيوتر، ط ١، دار بركات ـ =

وتوضيحاً لهذه التسمية يمكن القول إنَّ التفاحة مشحونة بطاقة أسطورية ضخمة حيث أنَّها أداة الاتصال الأولى في مقابلة آدم وحواء وتفاعلهما الذي فتح أبواب الدنيا على التكاثر وانفجار المعرفة اللانهائية والرقي والتطور. هكذا تغدو التفاحة عالية القيمة في الثقافة الأميركية والعالمية كرمز مميز للصحة والقوة والحياة المعاصرة. وإذا اعتبر هذا الاتصال المحطة الكبرى الوحيدة في تاريخ الإنسان، فإنَّها محطة تؤول إلى ما يشابه النهاية لتبدأ محطة وعهد جديد مع ثورة الاتصالات الألكترونية حيث فتح عالم جديد من الثقافة، ودخل البشر حقلاً جديداً من الشهيَّة الألكترونية تضاهي وتتجاوز بكثير وقع الكائنين الأولين في تواصلهما في بستان الشهوات الأول بحثاً عن المعرفة الفجَّة الأولى... فوق شجرة الجنة الموعودة الموهومة.

٢ ـ المقابلة الثالثة

وجاء الاتصال أو اللقاء الثالث بين الإنسان البكر وشوكة الكون أو زهرته حيث كان برفقة حواء خائباً على الطريق مطروداً خارج قبَّة الغيب هائماً على وجهه معها في الأرض. وكانت الصرخة الأولى التي نشهدها مع كل ولادات البشر إذ

= دار المعهد العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٢ ـ ١٤ و١٩٩٩ Encyclopidie Encarta مادة Ordinateur.

تصطدم بالمحيط الفائق الجدَّة المؤشر الأفصح عن صدمة هذه المقابلة الثالثة. نما منذ حصول هذا اللقاء الألم في تبادلية الاتصال بين البشر: واتخذ أشكالاً نظرية وأفكاراً تتردد وتتغيَّر، وبدت المخيلة البشرية في تكثيف للجهود تبحث عن تسميات هذه الثورة المعلوماتية المبنيَّة على الـ bits المشتقة من الرياضيات الحديثة لسببين:

أ ـ للتعبير عن مدى الثورية والمتغيرات الهائلة التي تحمل تحديات فكرية وإبداعية هائلة من ناحية.

ب ـ لاستيعاب أو محاولة الإحاطة بالكشوفات والطاقات، من ناحية أخرى، والتي جاءت مع المعلوماتية والسلطات اللانهائية حيث يلجأون إلى الأسطورة والتسميات الشعرية التي ربما يمكنها التعبير عن هذه المحطة البشرية الثانية الهائلة بالنسبة لـ Apple بعد محطة آدم وحواء الأولى.

هكذا نشهد بالإضافة إلى Apple تعابير وتسميات يعرفها البشر المعاصرون أكثر من أسمائهم مثل: مايكروسوفت -Micro soft Ware (١٩٧٥) البرنامج اللين الصغير (أول وأكبر شركات معلومات عالمية أسَّسها الأميركي وليم غيت William Gates الذي أسماه الأميركيون مؤخراً بيل وعرف بهذا الاسم تدليلاً على قدراته وسلطاته التي تفوق بكثير في لا وعيهم سلطات المال. والمعروف أنَّ الأميركيين يطلقون عن الورقة الخضراء الدولار تحبباً اسم بيل.

تطرح شركة الشمس تسمية SUN في طموح إلى امتلاك الشمس لتشع على العالم معرفة ومعلومات وهي شركة حديثة بدأت تنافس مايكروسوفت منذ العام ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩.

ثالثاً: المقابلات الثلاث الدينية

أشرنا إلى أن المقابلات الثلاث الأولى التي جمعت الإنسان بالله أو السماء بالأرض عبر علاقات ذات طابع أسطوري وديني طاغٍ على قسم كبير من البشرية، ويتخذ أبعاداً متجددة في يقظة الفكر الديني الذي تقوده دولة العولمة (أميركا) أو دولة الإعلام.

آدم مع الله ثم آدم مع حواء ثم آدم وحواء في مجابهة العالم رحلات ثلاث جعلت الفِطام نهائياً بين قبة السماء وقبة الأرض.

واستمرَّ هذا الفِطام حتى اكتشاف الوحدانية أو إعادة تذكر السماء لمولودتها الأرض. وهكذا تجد البشرية أسيرة مقابلات ثلاث ما بعد الطرد. وتصبح الحياة، بشكل عام، مطبوعة بوجهتين عريضتين في حركة التاريخ.

نعم وجهتان طويلتان يقصدهما الإنسان منذ وجوده بالمعنى الديني: الأولى من السماء إلى الأرض، والثانية من الأرض بحثاً عن السماء وبهدف تأمين بلاغة الاتصال بين المستويين. وقد حملت السماء همّ الأرض فحاورتها عبر هاتين

الوجهتين في كلمات ثلاث نطقها الله عطفاً على الإنسان أي الكلمة اليهودية في التوراة، والمسيحية في الأناجيل والكلمة العربية القريشية في القرآن. كلمات ثلاث وثلاث اتصالات ما قبل الوجود «المتضاعف» إلى ما لا حدود تؤكد قدسية الاتصال.

وقد تخلل هاتين الرحلتين ويتخللهما في كل لحظة مؤمنة علاقة نرجسية في جدلية الأرض والسماء، انعكس وتنعكس أشكالاً مختلفة متباينة، منحها «المتغير» أسماء الفلسفات والحضارات والثقافات، وبقي في بذرته الأولى سلطة حنين تشده إلى فوق. وبقي الترسُّب الأسمى في فعل التغيير البحث عن الغيب أو «الأرض» البكر الأولى أي السماء. فالأرض الثانية «هشة» «ميتة» رغم حيويتها الظاهرة وعند بلوغ الأصقاع.

وفي الكلمات الثلاث تأكيد ما وبدرجات متفاوتة على هشاشتها.

هكذا تصبح أداة الاتصال أو المعرفة الأولى السؤال الأول البكر: لماذا طُرد الله الإنسان من أرضه البكر ثم عادت السماء تهمس في أذنيه هشاشة أو تفاهة الأرض الثانية (المادة)؟

أنادمة هي على فعلها؟

أحسُّ بوحشة الكون للمرة الأولى، إذ انتهى الحوار ما بينه وبين الغيب، ووقف مسمراً، وجهاً لوجه أمام هيئة العالم. الأنا والكون.

«نظر إلى باب عدن، فرآه مغلقاً ختمت عليه يد القضاء. فعلم أنَّ العهد الإلهي القديم قد انطوى. وأنَّ عهد الإنسان قد بدأ، وأنَّ الفردوس المفقود لن يستعاد، فلا بدَّ إذن من بنيان فردوس جديد».

«سعى ساحباً قدميه الداميتين عبر إبر الأرض، ونواتىء الصخور.. يصل البحر بالبحر.. ويرد إلى العناصر العناصر ويقطف الفرقد الأبعد...».

«الإبداع والمرأة ويمتلىء الزمان الأجوف

الإبداع بالمرأة، فيجتمع المكان في **نقطة اللقاء**

الإبداع في سبيل المرأة... وتسترجع الألوهة الضائعة».

وأتاه من قعر الهاوية هاتف يقول:

- ما الذي تبتغيه من دنياك يا ابن اللذة المعذبة؟

- أنت مخرجي من نِعم عدن.

- إنَّها الحياة فعل.. ها أنت ذا فاعل، منفعل، محول متحول.. ألا يكفيك هذا **الوصال الأبدي** ما بينك وبين الكون؟

- وإذا عدت إلى الجنَّة يوماً! أموت أنا وتموت أنت!

- لا عودة للجنَّة بعد اليوم، سأودع في ذريتك جزءاً من خلودي.. فتضحي بها آدم الخالد.. آدم أيُّها الإنسان

الإله، يا متوج هذا العالم المطلق السلطان[1].

هكذا عادت ترتفع إذن أعمدة الحوار بين المرسل الأكبر والمتلقي الأصغر، فكانت الكلمات الثلاث أو الاتصالات الثلاثة الجديدة القديمة:

١ ـ الكلمة الأولى: موسى

المقابلة والحكمة الأولى موسوية وطريق التعرف إلى الأرض المادة البكر. اعتبرها أهلها طريقاً اصطفاها لهم الله للعبور وحدهم نحو السماء، ويده إليهم وحدهم ممدودة حتى الأبد.

هشاشة المادة خفيفة في هذه الكلمة.. لأنَّها اتصال أول بين الإنسان البكر والأرض التي توهمها بكراً. وفي الاتصال تعارف وعبور في الأرض حيث لا وجود للسماء إلى الإقرار النهائي بشرعية السماء ومسرح خيبة الإنسان.

وجاءت ترسبات هذه الكلمة في تواصل الإنسان مع الكون وحواراته نتاجاً متراكماً ثم مشتتاً ثم متراكماً من جديد، لم يرق إلى مرتبة الحضارة بالمعنى المعاصر رغم تفوقه المسلم به. وتشوبه روحية انتقائية تنفي أساس وجوده أي الحوار، واختمرت مع مرور التاريخ وبقيت جذورها تتصاعد حتى

(١) إنطوان غطَّاس كرم: عبدالله، ط ٢، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩. ص: ٦٩ ـ ٧٦.

تشكلت في «دولة» تعيش في تضاعيف الدنيا، ولا يمكنها أن تنام في مكانها. لذلك بدت الكلمة الموسوية في أحيان كثيرة أسراً في التعامل مع العالم... رغم المدى الذي تركه الغيب الناطق بحثاً عن اتصالات أو كلمات أخرى.

٢ ـ الكلمة الثانية: السيّد المسيح

إذا كان موسى كليم الله «الأوحد» أذناً منفتحة لالتقاط عذرية الخطاب الغيبي الأول قد أدخلته ثقل الأرض، فإنَّ عيسى جاء حاملاً للكلمة ابنة الغيب المُقابَل والمقابل وحيث «في البدء كانت الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله... والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا...»[١].

وتنزل السماء دينياً بنفسها إلى الأرض. ويصبح الاتصال الثاني بين الغيب والموجود بهدف اصطحابه أو إعلامه بدعوة السماء المجددة للمادة بعد تنقيتها من التلوث الحاصل حتى درجة الإمحاء الذي يرادف الامتلاء. التجسد هنا ارتفاع إلى فوق وهدف لا غاية لأنَّ السماء هي الغاية القصوى.

فكّت هذه الكلمة سياج «الأسر» الترابي الكثيف، وبدا الإنسان متحرراً من أي نص في سياق التاريخ. وتساوت ذات الإنسان وذات الكل واختلطتا لا كخليط الزيت بالماء ولا

---

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، الكتاب المقدس، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٤٥.

كامتزاج الماء بالخمر بل ما هو أبعد من الامتزاج الثاني وكلهيما معاً[1]. وبدا همّ الزمن، بهذا المنظور، انعتاقاً من هموم المادة، وصار الكون هشاشة لا تصلح للعبور الأرقى، بينما السماء هي المثال المطلق. وما التنافس الخفي بين الأرض، والسماء إلاَّ عبء حمله الإنسان في ترسباته الأقرب إلى الفعل والتفاعل. لا انعتاقاً من الأرض، لكن من ظلِّ السماء على الإنسان في الأرض. بهذا لم تزهو الحضارة بالمعنى الغربي إلاَّ على إنقاض الحقائق والمؤسسات، وهذا ما فتح باب السهولة في التخلص منها ومن النصوص.. وشرَّع باب صلاحية العقل على مداه دون إيذاء السماء.

٣ ـ الكلمة الثالثة: محمد

الكلمة الثالثة والأخيرة جاءت مع النبيِّ محمد (صلعم) أدخل الله معها نفسه مملكة الصمت. الصمت بلاغة الكلمة تتردد أصداؤها في روح الكون في أرضه «وسمائه». هنا «تزاوج» وتماثل Acculturation أو تثاقف بين الكلمتين السابقتين. ويحسم الأمر بين الأرض والسماء لصالحهما معاً وبالتساوي ديناً ودنياً، فتبقى الأرض جسراً يتمتع بالهشاشة منه نعبر نحو السماء. وتبقى الأخيرة رمز المطلق في السيادة حيث السلطة أيضاً أبدية في كلّ حرف وبهدي من التماعة النص المنزل.. مُنْزَلٌ ومَنزل المسلمين.

(١) وهنا محاولة التذكير بقدسية الخمرة في المسيحية.

يختلُّ هذا التساوي إذ يحوّل الإنسان اللمعان كله في وجه الكلمة الشفاف إلى وجهه هو أعني المادة الغالية. فيتم الاعتراف بالتنظيم الأبدي للحياة ويسيَّج الكون بمعالم الكلمة الجديدة، وكل ما هو خلف السياج فهو للتذكير عن طريق الذكر. ولأنَّ هذه الكلمة هي الأقرب إلينا، فإننا نعيشها كلما نطقنا، فيبقى صداها رطباً في الأذهان أي قريبة من الغيب. منها ينطلق المسلم وإليها يعود وكل هذا، رغم دعوات الانتظار التي أسست لتواريخ من القيلولة والترقب التاريخيين ولأمور مثل «القيامة» أو «الظهور الحقيقي» أو «العودة» نجدها في ممارسات الكلمات الدينية الثلاث أو في مجمل التواريخ حتى في أشدها معاصرة... وكأنَّ الأساطير لا تتغيَّر في أذهان البشر.

أليست القومية العربية التي كانت تقف في عصر الحرب القديمة الباردة بين الاشتراكية والرأسمالية في الستينات هي اليوم تلك الأيديولوجيا المنحسرة لمصلحة الصحوة الإسلامية المطعَّمَّة بالعروبيين؟ إنَّها تأتي، حاملة في وجهها الديني، ألف عام من الجهود والثقافة التقليدية التي لا تساعد على مواجهة تحديات العصر والترويج «لأساطير» الانتقال من قرن إلى قرن أو «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» المألوفة في أجهزة الاتصال الغربية والتي تبث في أنحاء الأرض خلال هذا القرن.

جاءت ترسبات هذه الكلمة، إذن، على مستوى الإنسان حاملة بشائر الانتظار مصحوبة «باجتياحات الكلمتين السابقتين على مستوى النشاط الباحث عن التغيير. وصار النشاط فارغاً

إزاء الكلمة الممتلئة بالسلطات، وهي الأنقى لأنَّها الأخيرة المصفاة في الحضارة الإسلامية، إذن ظلَّ طفيف لكلمة الغيب الصارمة. ولأنَّ الكلمة عربية قريشية، فإنَّ اللغة العربية موئل السلطات تختلط بدم الرسول في جميع مدلولاتها وممارستها في التغيير.

وصار الزمن الأول أو زمن الوحي النقطة التي يتحرك منها الإنسان وإليها يحن أبداً. إنَّها الكلمة العذراء التي يفترض أن تعيش كما في يومها الأول خارج «الخطيئة» وألوان التلوث. منها «نتحرك» بشكل أقرب إلى الدوران حيث التاريخ المتراكم الذي يجمع الماضي والحاضر والمستقبل. «يتحرك» فوق الأرض بهدوء، وفي خلده أنَّه يحمل مفتاح عدن في جيبه من جديد. النص هو الدنيا والآخرة والغيب حاضر في كل لحظة، منظم لكل حركة، وكل فعل تغيير ناتج عن اتصال يحصل «بهدي من نور الله... وإن شاء الله» والمقصود نور النص وسلطاته الأبدية في الدين والدنيا.

٤ ـ الأرض لسان واحد

بقي العالم غافلاً عن قيمة اللغة في النمو والارتقاء وأسيراً للنظرة التي رأت بأنَّها تعود أساساً إلى قبائل بني نوح ومن هؤلاء تفرقت الأمم بعد الطوفان:

«وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم (قبائل بني نوح) شرقاً أنَّهم وجدوا بقعةً في أرض

شنعار وسكنوا هناك.. وقالوا هلّموا نبني لأنفسنا ومدينة رأسه السماء. ونصنع لأنفسنا رسماً لئلاً تتبدَّد كل الأرض. فنزل الرب لينظر المدنية والبرج الذي كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداءهم بالعمل... هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم بعض فبددهم الربّ من هناك... فكفوا عن بنيان المدنية. لذا دعي اسمها بابل. لأنَّ الرب هناك بلبل لسان كل الأرض»[1].

لقد ساد هذا الإدراك القديم حتى بدايات القرن الثامن عشر، ليطبع لغات العالم بالمعجزة والخلق الإلهي الذي أضفى نوعاً من الحتمية العامة والسلطة المطلقة، لا على قوانين أصواتها ونطقها، بل على قوانين صرفها ونحوها ومفرداتها. وتصبح وفقاً لهذا الإدراك «العبرية اللغة الأولى التي تحدثها الناس على الأرض بوصفها لغة آدم ومنحة من الرب»[2].

وقد انقاد إلى هذه النظرة التي أسست لسلطة اللغات الدينية «كثير من العلماء حيث ترسخت الفكرة التي ترى إذن،

---

(١) العهد القديم. الكتاب المقدس: جمعية الكتاب المقدس، بيروت ١٩٦٢. تكوين: الإصحاح العاشر والحادي عشر. ص: ١٧.

(٢) ر.هـ. روبنز: موجز تاريخ علم اللغة، ترجمة أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٧، عالم المعرفة ٢٢٧، ص: ٢٧٠.

بأنَّ العبرية هي لغة الوحي واللغة الإنسانية الأولى التي تشعبت منها لغات العالم المعروفة»[1] وانتشر الإنسان بمعرفتها في عصر النهضة مثلاً إلى جانب اللاتينية واليونانية.

«وقد كان على آباء الكنيسة أن يستندوا إلى الكتاب المقدس أساساً في تأييد هذا الرأي وقد وجدوه في سفر التكوين أيضاً: والله خلق من الطين جميع الحيوانات وطيور السماء... فوضع آدم أسماءً لها، ليحمل كل منها الاسم الذي يضعه له الإنسان. وكذلك استند العرب إلى الآية: **﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾** ومال كثير منهم إلى أنَّ لغة العرب توقيف لا اصطلاح... لولا ابن جني الذي سبق إلى القول بوضع اللغة وبأن وضعها لم يكن في وقت واحد... وأنَّها بدأت بصورتها الصوتية السمعية فكان أصل اللغات كلها الأصوات المسموعة»[2].

لسنا في هذا المجال، لنبحث في مقاومة هذا التفكير الأسطوري أو تقصي أو إنكار أصل اللغات أو المناداة باستحالة الوصول إلى خلاصات قطعية تبيِّن البداية اللغويَّة للإنسان خصوصاً وأنَّ «هناك لغات تنتسب إلى تواريخ... ترجع إلى

---

(١) Jean perrot: La linguitique, P.U.F, Que Sais-Je, Paris, 1953, P. 69.

(٢) صبحي الصالح: دراسات في فُقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٣.

أكثر من عشرين قرناً... وهي لا تفيدنا علماً بالتغيرات التي طرأت على الكلام، ولا تدلنا على شيء من كيفية نشوئها»[1].

ولسنا نعلل الأصوات اللغوية أو الرموز الدلالية وكيفية وقوعها واللغات التي بها تنطق، بل يعنينا التطور الاتصالي في كونه طاقة إنسانية وسلطة تتجسد فيها اللغة، ليس بمعنى اللغة في سننها العامة وقوانين استعمالاتها الثابتة في علم اللغة العام، بل في ضوء أشكالها الكلامية، حيث يهدد غياب المقابلات أو الحوار المتدرج ليس اللغة وحسب بل الكلام. «وإذا كنا لم نعثر قط على قبيلةٍ لا لغة لها»[2]، فإننا نشدِّد في البحث عن قيمة هذه الاتصالية في الانتقادات الفلسفية العامة بهدف تجديد البحث في الاتصال ووضعه في نصابه السابق للجدل الفلسفي حيث تستمد اللغات سلطاتها من مستعمليها وألسنتهم.

رابعاً: المقابلات الإلكترونية

قد تكون الأنترنيت ونوافذ البريد الإلكتروني المرتكزة في اختراعاتها اليومية إلى منظومة شبكة الشبكات هي التي تسعف في ردم الهوة بين الإنسان والإنسان، فتسقط الحواجز بين الدول والشعوب والثقافات، ويخطو العالم بواسطتها نحو ميادين لا

(١) ج. ڤندريس: م. ن، ص: ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) صبحي الصالح: م. ن، ص: ٣٥.

تنتهي من المقابلات اليومية التي لا تعدّ ولا يمكن إحصاؤها عبر الشاشة.

وهنا يقع البحث في إطار الـ WWW أي الـ World wide wep أي نسيج خيط العنكبوت العالمي الذي يلفّ الكرة الأرضية بخيوطه الوهمية الناعمة، فيشكل الرداء الذي يؤمن الاتصال بين مختلف الشعوب والأفراد وبسهولة منقطعة النظير، لا فرق فيها ولا تمييزاً في الأعمار والأجناس والثقافات، بل رغبة واحدة جامحة في الاتصال. ويكاد يجمعهم لغة واحدة هي اللغة الإنكليزية التي تكاد تستأثر بالشاشة.

إننا في ميادين المقابلات الإلكترونية التي قد تشابه الألعاب.

١ ـ المقابلة عن طريق اللعب

كتب رونالد لانغ في كتابه «عقد» Nœuds: «يلعبون لعبة. يلعبون ألاّ يلعبون لعبة. إذا أظهرت لهم أنني عرفت لعبتهم. فإنَّهم يدركون أنني أكسِّر القواعد فيعاقبونني. يفترض أن ألعب لعبتهم وهذ يقتضي عدم إظهار إلاًّ ما أراه في اللعبة.

لا يمكنني التسلية إن لم يتسلوا.

وإذا جعلتهم يتسلون فيمكنني حينئذٍ من أن أتسلى معهم. ليس سهلاً أن تجعلهم يتسلون. إنَّه عمل شاق. يمكنني أن أتسلى للكشف لماذا هم لا يتسلون لست متجاهلاً إيجاد لذة في

البحث عن سبب عدم تسليتهم. لكن هناك لذة في التظاهر أمامهم بأنني لا أتسى أبداً في الكشف عن سبب عدم تسليتهم.

اقتربت فتاة صغيرة وقالت: لنتسلى.

ولكن السلوى مضيعة للوقت، ولأنّها لا تعين أبداً في الكشف عن سبب عدم تسليتهم»[1].

يأتي هذا النص لعالم النفس التحليلي «لانغ» في مجال حل العقد المترتبة على تبادل الأدوار في علائق الاتصال بين واحد وآخر، مسبوكاً وجاهزاً للتعبير عن هذا الصراع الخفي الذي نحن بصدده بين الجدِّية واللعب.

هل لنا في ميادين الكتابة/ التسلية حق في حين أنَّ رسلاً وأنبياء وقديسين قالوا ودفعوا أثمان اللغة والإنسان وانهيارهما في سلاسل لا تنتهي؟.

قد لا يمكننا فهم المقابلات عن طريق اللعب أو فهم النص الذي طرحه لانغ في مقاربته لألعاب الأطفال الذين تبادلوا الأدوار مع أهليهم، فأصبح الولد أباً لأمه أو لأبيه، وكلُّ هذا

---

(١) Ronald D. Laing: **Nœuds**, Trad. de l'anglais par claude Elsen, Stock, plus, Paris, 1977, P. 17 - 18.

وقد اشتهر لانغ بكتاباته في الألينة أو الاغتراب Aliénation وله: Le moi، La politique divisé de l'expérience وهو من المحلّلين النفسيين الذين عرفوا في أميركا والعالم.

التحول بفضل تقدُّم الخبرة على المعرفة، حيث أنَّ الأنامل فوق المقابس أقوى من الذاكرات المحشوة بالمعلومات. قلنا لا يمكننا فهم هذه الألوان الجديدة من المقابلات الصامتة/ اللعبة إلاًّ بالتطرق إلى سؤال طرحناه من قبل حول دور الفأرة والعنكبوت والريموت كونترول في تحديد الأصدقاء والثقافات وفي تعبئة الأزمان. لكن هذه العناوين، وخاصة، الفأرة Mouse التي توحي بالثقافات/ اللعبة تفترض وضع الركيزة العلمية لها كلِّها، ونعني بها ثورة الكومبيوتر الأسطورية التي ساوينا فيها بين ماكنتوش والخالق، والتي قلبت المفاهيم رأساً على عقب، ودحرجت المصطلحات التقليدية منها نحو الهاوية والنسيان.

ماذا نقصد بثورة الكومبيوتر؟.

٢ ـ ثورة «الكومبيوتر» الأسطورية

تكمن قوة الحاسوب في ما يسمى الـ bits أي الـ binary digit أي صفر وواحد في منظومة الترقيم الثنائي. وتشير الأرقام إليه إلى أنَّه أصغر وحدة إعلامية تمكننا من فهم أبعاد الثورة المعلوماتية المرتكزة عليها. وتشير الموسوعات(١) إلى خلاصة مفادها أن الإعلام هو نظرية رياضية أساساً تقوم على قياس كميَّة المعلومات وتمثيلها بها يسمح من معالجتها ونقلها (كوداج) أي بواسطة رموز. تمكننا هذه الرموز من معرفة اندماج الأصوات

(١) Encyclopidias: Universalis 999. Larousse 999, Encarta 999.

والصور في إشارات إلكترومغناطيسية ولكن أيضاً في أرقام تفترض السبرنطيق والألسنيات وعلم النفس. تسمى هذه الرموز bits :

أ ـ لو ضربنا صفراً بواحد يكون الناتج صفراً: صفر × ١ = صفر. وإذا كان الصفر الذي يعني المنزلة الخالية من العدد وبالعربية له معنى المكان الخالي والجوع والعدم، أننا نتساءل أين ذهب الرقم واحد بعد الضرب؟

الجواب: إمتصَّه الصفر!

من هذا السؤال اتخذ الصفر حجماً كبيراً حتى لكأننا مع الرياضيات الحديثة في نقطة البداية المعرفية الثانية مجدداً. وهكذا نفهم في ما بعد كيف أنَّ الصفر وحدة أساسية محسوبة في ألعاب الأطفال ونتاج المعلومات العام وليست عدمية. إنَّها معدودة.

الصفر والواحد إذن يكفيان لتأليف رقم.

ب ـ لو تساءلنا الآن: هل هذا النص الذي نقرأه سلبي أم إيجابي؟ حيث السلبي هو الصفر والإيجابي هو الواحد. . . فإننا نقدم مرسلة لا تساوي كمية معلوماتها إلاَّ صفراً. ولو رتَّبنا نتائجه في رسائل منفصلة أو متداخلة بين السلب والإيجاب لوجدنا أنَّه سلبي وإيجابي وسلبي إيجابي. وعن هذه نصل إلى ثماني حالات لها علاقة بالنص:

سلبي سلبي سلبي	○ ○ ○
إيجابي إيجابي إيجابي	/ / /
سلبي إيجابي إيجابي	/ / ○
سلبي سلبي إيجابي	/ ○ ○
سلبي إيجابي سلبي	○ / ○
إيجابي سلبي سلبي	○ ○ /
إيجابي سلبي إيجابي	/ ○ /
إيجابي إيجابي سلبي	○ / /

تصل كمية الرموز الثنائية المسماة bits والضرورية لتمثيل مرسلة من ٨ حالات. الـ bits، إذن، لا معنى لها في انعزالها بل تتخذ قيمتها في مجموعات من ثمان تمثل حالات متعددة من المعلومات خصوصاً بالنسبة للأبجديات والأرقام من ١ ـ ٩.

إنَّها بذرة الاتصال أو المقابلة بالمعنى العلمي المحض.

وتتضاعف الـ bits إلى octet في اللغة المعلوماتية التي تتألف من ٨ bits. ولا تشكل الـ octet إلاَّ كميات محددة من معلومات الذاكرة الحيَّة C.D. ROM (Compact Disc Read activ memory) البشرية التي يشار إليها بالكيلو عندما تصبح في الحالات الصلبة الميتة أي C.D. ROM (Compact disc Read only

(memory) جاهزة للقراءة السهلة على أجهزة المعلومات وبواسطتها[١].

1 Kilos octets = 2^{10} octets = 1024 octets

أو بالميغا Méga - octets

1 Méga octet = 2^{20} octets = 1048576 octets

تذكرنا هذه الاشتقاقات بما نشهده، ربَّما، في اللغة العربية حيث الاشتقاق صفة الإبداعية في اللغة التي اكتسبت سلطاتها من قداستها في الدرجة الأولى، وهي ليست صفة متلازمة مع اللغة العربية وحسب، بل تقودنا إلى الخروج من نظريات نشأة اللغة من الحياة، التي راحت تغذيها بعد ما خلقتها، إلى النظرة الدينية.

وقد كثرت التعبيرات والشروحات التي تؤكد على «التوجه الإلهي في نشأة اللغة وكأنَّها منحة مباشرة من الله للإنسان وهو ما ألمح إليه أفلاطون ووجد في عدد من التفسيرات الأسطورية التقليدية للعهد القديم وفي الديانات التوحيدية كلها...»[٢] أو

---

(١) اشتق من الذاكرة الحيَّة طائفة أخرى من الشرائح أولها C.D.I أو ما يعرف بـ compact Disc interactif وتستعمل في الألعاب في أقراصها المختلفة. ونزلت إلى الأسواق .D.V.D أي Digital versatile Disc حيث الإمكانيات المتضاعفة في التخزين وسرعة الحصول على المعلومات.

(٢) ر. هـ. روبنز: م. ن، ص: ٢٤٨.

الكلمات الثلاث نزولاً حتى نوح أو صعوداً حتى كشف العنكبوت كرمز للمعارف العصرية، وهو رمز على تماسٍ متقدم مع المعتقدات الدينية، وخاصة الإسلامية منها.

٣ ـ المقابلات العنكبوتية

كانت الصعوبة مستجدة في حسم الصراع لمصلحة الدخول في اللعبة مقتنعين بسخرية اللعب حيث البداية لغوياً من (بدأ) أي من الطفولة والعودة إليها، وحيث (بدا) أو أبدع عالماً واسع الغنى تبدأ فيه السلطات والمفاهيم وتتهاوى أمام الآلات وألعاب الڤيديو والكومبيوتر والأنترنيت نبع المقابلات اليومية. كيف؟.

أنشأت وزارة الدفاع الأميركية عام ١٩٥٧ وكالة ARPA للبحث المتقدم في مجال الاستخدام العسكري خصوصاً بعد إطلاق الاتحاد السوڤياتي الناجح لأول قمر صناعي Spoutnik. وقدَّم Paul Borau دراسة عن نظام الاتصالات العسكرية للقوات الجوية الأميركية قوامها مبادىء وفوائد إنشاء شبكة شديدة التشعب واللامركزية تسمح باتصال اثنين عبر أكثر من طريق بحيث تتعدد الـ Connects. ويفترض أن يضمن الحاسوب عمل النظام الاتصالي وتأمينه حتى في حال التدمير الجزئي للشبكة. وجاءت التجارب تطرح شبكة أميركية كأول تطبيق عملي لشركة Arpanet تمَّ تحقيقه في جامعة «أوكلا ـ ستانفورد» في الولايات المتحدة الأميركية بين ٤ أجهزة حاسوب صغيرة لكنها قوية، ثم أضيفت إليها عقداً أو أجهزة أخرى في جامعة كاليفورنيا.

وكانت ولادة هذا البرنامج في ٢١ تشرين الثاني ـ أكتوبر ١٩٦٩. وظهرت عام ١٩٧١ شبكة على الكومبيوتر لتنظيم المشاريع في المراكز الرسمية الأميركية.

وجرى خلال المؤتمر العالمي الأول للاتصالات المعلوماتية الذي عقد في واشنطن عام ١٩٧٢ عرضاً لشبكة ARPANET من أربعين موقعاً مختلفاً أمام جمهور من المختصين جاؤوا من كندا واليابان والنروج والسويد والمملكة المتحدة. وبدأ العمل والتنسيق في مقاربة أولى للهندسة العالمية الاتصالية المقبلة. وكان لا بدَّ من خلق لغة مشتركة لهذه الوسائل التي تزاوجت وجاءت ممهورة بجهود Vinton Cerf وRobert Khan اللذين اخترعا ما يعرف بالـ T.C.P أي (Transmission control protocol) والذي استخدم قاعدة أساسية لبروتوكول الأنترنت I.P.

وبسبب من تدفق لغات مختلفة لنقل المعلومات قام Cerf عام ١٩٨٠ بطرح الاستخدام المجاني للمعلومات. وكان لا بدَّ من مراحل تطور تقنية رسخت مقولة الأنترنت حيث كان يجب الانتظار عشر سنوات ليقوم عالم سويسري من المركز الأوروبي للأبحاث النووية C.E.R.N بإيجاد علاقة ما فوق النص المتمثلة بـ html ويدعى Tim Berneo Ice إلى جانب الفضاء المتكامل أو نسيج خيط العنكبوت أو شبكة الشبكات(١).

---

(١) Odile Ambry: Internet, l'aventure fulguante du réseaux des réseaux, culture et société, R.F.I, Paris, n° 164, 18 Fev, 1998.

تحقق هذه الألعاب والمعارض والأساليب الاتصالية في الأنترنت أحلام الدول الكبرى في «تخليها» عن السلطة، وهي تجازف في مضاعفة سلطاتها عن طريق التزاحم في بث المعرفة ولغاتها. ويشهد الباحث كيف يدبّ الهلع في هذه الدول، وعلى رأسها أميركا وتكاد تكون وحيدة، من أن يكون في نقطة ما من الكرة الأرضية أو بحوزة مجموعة بشرية منعزلة، ليست تحت السيطرة المباشرة إمكانيات (نووية) مخيفة وغير مدركة، فكانت المعلومة في أسس الفأرة هي الحل والمدخل إلى العالم في طرق العناكب تلفُّ الأرض فتحميها من الخراب والحروب النووية.

لقد تمكنت هذه المكتشفات والوسائل المعرفية والإعلامية، وتتمكن من الإمساك، بواسطة خيوطها الواهية (W.W.W) في آخر تجلياتها بسلطات سادت البشرية منذ عهد الإنسان الأول وصولاً إلى القبيلة والعشيرة والعائلة والأب والمدرسة والجامعة ودور العبادة والمؤسسات السياسية والمدنية وحتى العسكرية منها التي كانت وما زالت ترمز فعلياً إلى السلطة، وخصوصاً في البلدان العربية، سواء في الشكل أو في الوظيفة على السواء.

وتأتي الإشارة إلى سلطات خيوطها الواهية لأنَّها تمثلت

والموقع على الأنترنت (RTTP: //WWW.Mids.org/).

وأيضاً: Encyclopédie Universalis C.D. 2000.

بالعنكبوت الذي يبصق طرقه أمامه ويلصقها ويفلشها لاصطياد الطرائد من الحشرات التي تعلق فوق شباكه الناعمة؛ لهذا منحوها، ربُما، هذه التسمية «نسيج خيط العنكبوت» حيث تقع الدول والجماعات والأفراد ضحايا، وبالصدفة، فوق خيطان «وأسلاك» المعرفة والمعلومات الوهمية التي تلفّ الكرة الأرضية ومن خلفها سلطة قاعدة في الظلام والرطوبة أو أنَّها سلطة غير ملموسة وافتراضة لكنها مدركة. أليس التابع وراء شاشته مغلفاً بالصمت الكامل هو الإنسان المعاصر الذي يتوهم بأنَّه يحقق أقصى تجلياته اللغويَّة والاتصالية، لكنه في الواقع يسترق السمع لالتقاط بعض الصدى في مقابلاته الحديثة الوهمية في سلوك ما اندرجت آثاره بعد في معاجم الأمراض النفسية الكثيرة لحداثته؟.

المفارقة، هو أن تستلَّ الفلسفة الحديثة في الاتصال تسميتها من وهن خيوط العنكبوت نسيجاً شديد القوة في ضعفه.

ويدفعنا التحليل في هذا الاختيار للعنكبوت إلى ملاحظتين بيولوجية ودينية:

أ ـ تكاد تجمع الأديان التوحيدية على ذكر العنكبوت الذي حمى وخلّص أصحاب الرسالات التوحيدية كلهم تقريباً من الموت لأنَّه كان يعمِّر خيطانه على «أبواب» المغاور والكهوف التي التجأ إليها الأنبياء والرسل من مطارديهم بسبب لغاتهم التي ما زالت حيَّة كثيراً في أذهان البشر.

تقول الروايات أنَّ موسى في مرحلة من عبوره حفظه العنكبوت. إذ لجأ إلى مغارة أثناء عبوره خارجاً من مصر في العهد القديم، وكذلك حفظ مريم العذراء من الأعداء وجانبها الخطر. . وتبدو الرواية أيضاً في سيرة النبيِّ محمد واضحة عندما أمره الله بالهجرة من مكة إلى المدينة لجأ داخلاً إلى غارٍ بجبل ثور في أسفل مكّة خوفاً من أن يلحقه أذى قريش التي جعلت مائة ناقةٍ مكافأة لمن يدلهم على النبيِّ أو يأتي به[1]. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الخروج في الآية: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا**﴾[2].

وهكذا حفظ العنكبوت كلمات الله الثلاث وتمكن من رفع الأذى عنها فأصبح رمزاً خاصاً في لا وعي الشعوب يقدسونه ويحافظون عليه حيث حفظ لهم رسالتهم وحماها كما في العربية تخصيصاً، أي حفظ لهم لسانهم ولغتهم ومستقبلهم.

---

(١) ابن هشام: كتاب سيرة رسول الله، الجزء الثاني، لا. م، القاهرة، ١٣٣٦ ـ ١٣٣٧، ص: ٩٨ ـ ١٠٠.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

ب ـ ما هو البعد المعرفي في قيام أنثى العنكبوت من قتل ذكرها مباشرة بعد التلقيح واستعماله تجويفةً لوضع بيضها فيها وغذاءً للاستمرار حتى الوضع في الحياة؟.

من المعروف بيولوجياً أنَّ عملية الوضع يفترض أن تتم في انعدام للذكورة الأمر الذي يفجِّر لعاب الأنثى الموصوف بصلابته القصوى بالرغم من وهنه وهو أقسى مادة على وجه الأرض. وتهندس أنثى العنكبوت فيه نسيجها الهندسي أو بيتها القائم على مبدأ المركزية في التواصل. فكيفما قرُبت الطرائد من الحشرات من هذه الخيوط فهي واقعة في الشباك اللزجة. تعلق وتنتظر دورها بعدما تصل معلومة الاحتكاك إلى مركزية العنكبوت الذي يتقدم لتأمين موت الطريدة.

قد يفسر الوهن واللزاجة والإفرازات دلائل ضعف وانهيار أو استبدال قوة الذكورة الميتة بقوة الأنوثة القائمة أو بإضافة القوتين في غرائز التكاثر.

ويختلف التفسير، بالطبع، باختلاف الوجهة التي ننظر منها إلى الذكورة كدليلٍ للقوة أو لعدم الجدوى. هل تنهار السلطة مع موت الذكر أم تتضاعف؟.

لسنا في وارد الاسترسال في البحث عن السلطة في هذا المجال، وما ينطبق على العنكبوت يأتي في سياق بيولوجي مشابه قد نجده عند كائنات أخرى، وأبرزها النحل حيث غريزة اختيار الأقوى تفرض لقاءً مباشراً بين اللذة والموت، ولا تتم

اللذة إلاَّ في السلطة الأعلى التي يمتلكها ذكر واحد من النحل يظفر بالملكة التي تغدو ملكة فعلية لحظة تلقيحها في طيرانها أمام الذكور عمودياً نحو الفضاء فيعود ملك النحل ملقح الملكة إلى القفير ينتظره الموت مع غيره من الذكور. **أليست الولايات المتحدة هي دولة العولمة القوية التي تعلق بشباكها الدول والشعوب الصغيرة مثل الطرائد أو الحشرات الضعيفة التي تبدو مفتونة بالـ internet والـ Hotmail والـ E-mail والـ Face book وكل ما له علاقة بوسائط الاتصال والمقابلات السهلة بين البشر؟.**

٤ ـ «الريموت كونترول»

لن نفصّل في استعراض الأجيال من الألعاب الإلكترونية التي تورث أجيالاً إلكترونية الرغبات والسلوك وميَّالة إلى الصمت الكلي. ما يهمنا في هذا المجال هو كيفية الخروج من التلقي الكامل إلى الإدارة الكاملة للأشياء بواسطة الريموت كونترول أو جهاز التحكم عن بعد أو بواسطة الفأرة على تشابه وظيفتيهما، وبما قد يعوِّض بل يتفوق على سلطات التعبير والمحادثة.

وإذا كان الطفل أو الإنسان يمارس سلطة تدخله إلى الأفلام والأخبار والكلام والتحادث مع الآخرين بكسبة زر في يده، يبدو فيه متنقلاً من محطة إلى محطة ومن عالم إلى عالم في التلفزيون. يغيِّر ويبدل ويسكت من يشاء ويترك لمن يشاء

حرية الكلام، فإنَّه يمارس حريته وسلطته التي يعبِّر من خلالها، ولو أنَّ عدداً من محبي الظهور أو المشاهير يعتبرون أنفسهم قادرين على إبطال مفعول الريموت كونترول بين أيدي المشاهدين.

كانت السلطة وما زالت على هذا المستوى التلفزيوني مصحوبة بالكلام، لكنها تبدو في سلوك الألعاب الإلكترونية مصحوبة بالصمت أو الإغراق فيه مقابل تنامي سلطة جهاز التحكم.

هكذا يبدو هذا الجهاز سلطة فائقة ترعب الأطفال من ناحية، لكنهم يروضون الرعب بالإلفة، كما ترعب الكبار في ظهورهم على الشاشات والمعلنين. إنَّه الجهاز الصغير جداً والسهل جداً وهو المتحكم بكل أجهزة الإعلام والإعلان والمعرفة والمعلومات ويبرز بأنَّه «سلاح» تأكيد التنوع والحرية والديمقراطية الإعلامية في العالم.

وقد تضاعفت سلطات الإعلام مع جهاز التحكم عن بعد التفاعلي أو interactif Remote Control الذي يجعل المتفرج يختار بواسطته ما يريد من برامج في الزمان والمكان الذين يريدهما. وما عادت محطات التلفزة تفرض أوقات ومضامين محطاتها، بل أنَّ المشاهد هو الذي يكيّف هذه الأمور وفقاً لرغباته وأوقاته ومزاجه مما يمنحه سلطة مضاعفة وحرية أكبر بكثير من جيل الريموت كونترول الأول التقليدي.

لقد تحوَّلت هذه الرغبات إلى فورية Now بحيث ما عادت الحاجات تحتمل التأجيل أو الانتظار، لأنَّها رغبة آلية كما نرى، تسيطر على الزمان والمكان والمضامين وتزيل كل الحواجز والحدود التي تضعها السلطات والقوانين، وهي تؤثر في بناء الشخصية التي تعرض عن رموز السلطة من ناحية في معانيها التقليدية الثابتة وتعوض عنها في سلطات أجهزة التحكم وأجهزة الإعلام والكومبيوتر، فتزداد الهوة بين الأجيال ويتراجع الكلام ويقوى الصمت أمام النوافذ المفتوحة[١] مباشرة مع العالم والتي تخرج وهمياً من الهوة التي تقعد، ربَّما، الأجيال فيها. والملاحظ هندسياً أنَّ لا نوافذ أو شرفات مشرعة في الغرب خلافاً للبلدان المشرقية، وللتسمية بهذا المعنى إسقاطات تحليلية تعكس مدى الجمود المرضي في الطاقة الاتصالية لدى الغربيين.

وفقاً لما تقدم، سقطت السلطات اللغوية وسقطت اللغات ومنها العربية في مخاطر الصمت، وبتنا نشهد أجيالاً غير لغوية. ولم يصمد خلال هذا التاريخ سوى الفأرة الصامتة القوية المتكلمة بجمالها.

---

(١) النوافذ بمعنى Windoos بالإنكليزية وهي أبواب المعرفة التي يفتحها الإنسان عبر شاشة الكومبيوتر. ونعتقد أنَّ إسقاطاً كبيراً تحمله هذه التسمية أيضاً لترمز إلى الخروج من لمة الحياة الفردية التي أورثتها الحياة الصناعية للإنسان الغربي وحيث يبدو عالم الشمال منازل مقفلة الأبواب والنوافذ لا يفتحها إلاَّ عبر الشاشات الاتصالية في عالم لا وقت للاتصالية فيه.

٥ ـ الفأرة «سيدة» وسائل الإعلام

لماذا اختيرت الفأرة وسادت رمزاً يرافق الإنسان بالرغم من عشق الغربيين لغيرها من الحيوانات مثل الكلاب وافتنانهم بها؟.

تقول الأسطورة الشرقية في الفأرة التي تشارك العنكبوت في خلودهما إلى ظلمة الجحر، أنَّ نصيحةً كان يسدونها الأجداد القدامى لأبنائهم تحقق نشاطاً وحيوية وذكاءً خارقاً لدى أحفادهم المولودين حديثاً. وتختصر النصيحة بوضع حبل الصرَّة للمولود عند يباسه وسقوطه في جحر الفأرة. وقد يُنصح في المجتمعات المدينية برميه في الماء عند هياج البحر. ومهما تشعبت الأفكار، فالفأرة بالمؤنث إجمالاً حاضرة في لا وعي الجماعة وكأنَّها بطلة كل العصور حيث اتخذت صفة «السلطة القاهرة» للزراعة والغلال في وصفها الأول.

ولقد طبعت الفأرة حياة الأطفال الصغار وخيالهم سواء كانت حبال أصرتَّهم في جحرها أم لا. وبدت محوراً للصور الملوَّنة والحركة الإنزلاقية السريعة والنشاط والاكتشافات الأولى لجماليات العالم الخارجي ألواناً وحركات.

ولقد اجتاحت هذه الصورة للفأرة حياة الكبار وخيالاتهم أيضاً، ولأهداف ترفيهية وتجارية فغطَّت الأسواق، وبرزت في ألوانها الزاهية تحتل الواجهات، وتشغل اللغات الإعلانية والدعائية، وتدمغ المنتوجات والسلع الخاصة بالأطفال والكبار بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية. وغدت حضوراً متألقاً يصحبنا فوق الثياب والكتب والقرطاسيات والعطورات

والمأكولات، ولها أسماؤها ومنتدياتهاومطاعمها ومدنها (والت ديزني) وعرباتها وألعابها التي لا تنتهي تشغل ذاكرة الأطفال وتلهب حماسهم دون أدنى تمييز بين أذواق الذكور والإناث منهم. . . وحيث الـ minnie[1] هي مثلاً الفأرة المعشوقة من الفتيات الصغيرات ينجذبن إليها ويتماهين بها ويحتفظن بها حتى زواجهنَّ فيحملن ألعابهن إلى البيت الزوجي.

لقد طبعت الفأرة، أيضاً، حياة البشرية لا بالمعنى الأفقي الجمالي، بل بالمعنى العلمي الموضوعي، لأنَّها شكّلت منذ بداية الموضوعية «الجسر» التجريبي الذي عبر ويعبر الإنسان من خلاله إلى العلم والاستنتاج، وذلك عن طريق التجارب التي حوّلت الفأرة إلى المختبرات البيولوجية والطبية والعلمية بشكل عام. وتتحمل الفأرة مخاطر الاكتشافات واكتشافات الأدوية والمحاليل قبل تمريرها صالحة إلى الإنسان. ولا ندري إن كان في الصورة الزاهية «والحضارية» للفأرة نوع من التعويض عمَّا تقاسيه أجيال الفئران في مختبرات العلماء من «آلام»، وإذا كانت هذه الصورة نتيجة لهذه التجارب، فهي لا تنفي كون البشرية ومعها الفئران عاشت حتى الآن مرحلتين في التعاطي مع وسائل الإعلام:

- مرحلة التلقّي الكامل.

---

(١) ميني «زوجة» ميكي ماوس وتتميز عنه للضرورات والسلع الاستهلاكية والسوق.

- مرحلة المشاركة والأمر بواسطة أجهزة التحكم عن بعد.

تبدو الفأرة مجدداً معروفة بالـ Mouse في اللغات كلها، تأتي لتشغل الزمن المعرفي المعاصر؛ وإذ يحوقها المرء براحته يقبض على المعرفة كلها. إنَّها الرمز القوي الذي يحرّك المؤشر أو السهم[1] على الشاشة بهدف الجهوزية السريعة والكاملة لفعل النقر أو الكبس. ونلاحظ التناغم بين الفأرة الاصطناعية الثابتة نسبياً تحت الأصابع وسرعة انزلاق المؤشر فوق الشاشة، في حفاظٍ على طبيعة الفأرة وقدراتها الحركية الأصلية.

لقد توقف الفكر اليوناني في معالجته الواسعة لمعضلة الزمان فلسفياً في اعتباره نبع الحركة الدائمة. ومن هذه المعالجة انبثقت صورة السهم رمزاً حاداً يشير علمياً إلى المستقبل وتركزت عقارب الساعات الوحيدة التي تصاحب حركة الزمن ودرته وإيقاعاته الاصطلاحية.

بهذا المعنى «ذهب أرسطو إلى القول بأنَّ وحدة قياس الزمن في إطار «قبل» و«بعد» تفترض السهم أي فكرة الموجه vector أو vecteur بالفرنسية والمحدد برأس السهم الذي يشير طوله إلى الزمن المنقضي»[2].

---

(١) Flèche.

(٢) سيّد محمد غنيم: النمو العقلي عند الطفل في نظريات جان بياجيه، حوليات، عدد ١٣ جامعة عين شمس، كلية الآداب، القاهرة، ١٩٧٢.

٦ ـ الماوس «العاطفية»

لا تتجلى سلطات الفأرة في قساوتها، إلاً في استغراق الغرب في الكلام عن «المعلوماتية العاطفية» وهو ليس خيالاً، بل علم جديد يبحث في رفع التحديات السلطوية التي تتمتع بها تقنيات الاتصال. ويهتم هذا العلم بمعرفة حالات المبحرين في الشاشات من الناحية العاطفية، ومدى استجاباتهم لما يشاهدونه صامتين أو جاهدين بطيئين في النطق. «فهناك الفئران العاطفية المزودة بلواقط تقيس مع كل نقرة إصبع فوق لوحة المقابس ذبذبات الجسد الاتصالية عبر الأنامل، بهدف تحديد واستنتاج مدى الإرهاق والحالة النفسية المعقدة أو الارتياح الذي يعيشه المبحر»[١].

وتعتقد روزليند پيكار[٢] التي تدير مختبر «المعلوماتية العاطفية» في معهد ماسشوتس للتكنولوجيا[٣] بمستقبل هذه الأشياء والأفكار التي تسمح عن طريق الصوت والصورة من معرفة حالتنا الفيزيائية في أثناء الاتصال، فتنبه الدماغ إلى اتخاذ حذره لتغيير الحالة العصبية التي يكون فيها المتصل أو ضبطها، فتساعده على التحكم بما يشحن به زمنه المعرفي السريع.

---

(١) Emile Servan Shreiber: Mon ordinateur m'a souri, psychologies, No 180, nov. 1999, Paris, P. 42.

(٢) Rosalind Picard.

(٣) Massachussetts institute of Technology.

وستكون هذه الأشياء أجهزة متناهية الصغر تسمَّى handy 21 تيُّمناً بالقرن الواحد والعشرين، ويمكن إدخالها في الأجهزة الاتصالية كلها وتنفّذ الأوامر الصوتية من دون الحاجة إلى لوحات المفاتيح. ستكون «روحية» تدخل الهواء الذي نتنفسه، ولهذا السبب منحت هذه الشبكة الدقيقة اسم أوكسيجين Oxygene[١].

٧ ـ الزمن الرملي

يستدعي الكلام عن الزمن العودة إلى الساعة الرملية أو التجسد الأول للزمان في مغامرة آلية لم يكن معها سهلاً ضبط حركية الزمان. يُنقر على رأس الفأرة في ضبط للسهم المنزلق كمن يمسك الماء في البداية وهو يحاول الدخول إلى الشاشة.

لم تكن تلك المغامرة سهلة في مصالحة الأجيال بالرغم من أنَّ ظاهرها بدا سهلاً. وإذ يثمر النقر، يمثل إلى جانب السهم فوق الشاشة الساعة الرملية أو بكرة المعرفة التي لا يوثقها عائق أو قانون في تنقل الرملِ من زاوية إلى أخرى إلاَّ مرور الزمان. والبكرة في اللغة من بكَّر أي تقدم وأسرع وعجّل في كل شيء وهي في أساسها آلة مستديرة في وسطها مَحَزٌّ يمر عليه حبل لرفع الأثقال وحطها.

ويقال «والبكرات شرهن الصائمة» أي التي لا تدور.

---

(١) Emile Servan Shrieber: م. ن.

«والبكرة هي الآلة الخشبية البسيطة التي تُلف عليها الخيطان. ويسهل كرّها من دون عقد»[1].

تكرُّ المعلومات من الساعة الرملية في مقارناتها مع نصوص كثيرة ترتبط بألعاب الأطفال وسلوك حلقات الأطفال، فتظهر مرحلتي التلقي الكامل أو التحكم عن بعد بالنسبة للإنسان عموماً والأطفال خصوصاً وكأنَّها تأتي مشحونة بانهيارات نفسية تؤسس لأجيال قليلة النطق والتواصلية متباعدة، لكنها كثيرة التلاقي في الساحات العامة.

---

(١) المنجد في الأدب والفقه والعلوم، ط ٥، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠، مادة بكر.

الفصل الثاني:

التفاعلية وفلسفة المقابلة

حاولنا التعرُّف إلى المقابلات في جذورها وأبعادها الفلسفية والدينية. وأشرنا إلى الأهمية التي يشغلها الرقم ثلاثة في الثقافة واللاوعي الفردي والجمعي. وقد حاولنا الربط بين المقابلات الأولى التي حصلت مع آدم قبل وبعد طرده من الجنَّة تدليلاً على تلك الثقافة المشبعة بظلال الأساطير. ولقد اتخذت هذه الأساطير، كما رأينا، أبعاداً موغلة في القدم كما في المعاصرة، إن لم نقل في الحداثة وذلك في معالجة سريعة للمقابلات الإلكترونية.

تتخذ المقابلات الإلكترونية صفة اللعبة ببساطتها، وتأخذ أبعادها الحقيقية عبر التعرف، كما ذكرنا، إلى ثورة الكومبيوتر وتحليل عناصر القوة في الشاشة مثل المقابلات العنكبوتية، وقوة الريموت كونترول، ورمزية الفأرة التي تحمل في رأسها الصغير ثقافة العصور القديمة والحديثة، وبما يخلط بين التسلية والتثقيف.

وهنا يلمس الباحث، مدى الخلط الذي يمكن أن يواجه الأبحاث الإعلامية بين مصطلحات التواصل والاتصال والأبناء

والإعلام في الكتب والدراسات العربية وغير العربية.

ولهذا الفرض، كان لا بدَّ، من التمهيد لفن المقابلات الصحافية بمجموعة من الشروحات التي تفصل أو تجمع بين هذه المصطلحات المعاصرة مجتمعةً.

فما هو التواصل؟ ما هو الاتصال؟ وما هو الإعلام؟ ما هي الوظائف التي تجمعها كمصطلحات أو تفرقها في حيِّز الواقع؟.

أولاً: التواصل

يشير التواصل إلى حدوث مشاركة ما في فعل بين شخص وآخر والتواصل نقيض التنافر والتباعد والتهاجر كما يفترض علاقة إيجابية فيها ربّما من مظاهر ومشاعر الحميمية أو الرغبة مما يفرّق معناها عن الاتصال الذي يفترض صفة تحدده وتمنحه طبيعته.

«والتواصل هو الشروع في إقامة علاقة ذات طابع عاطفي مع الآخر. أي حدوث علاقة شعورية بين الاثنين، وهو أيضاً دون ذلك في حدوث رغبة الاتصال بينها»[1] على ما جاء في الموسوعة الفلسفية.

---

(١) الموسوعة الفلسفية، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٩٨٦، مجلد ١، ص ١٨.

ويرجع التواصل والاتصال إلى فعل وصل بالعربية. وصل وصلاً وصلةً أي جمع ولاءم. وتقول في العربية تواصل وواصل (فاعل وتفاعل) من مصدر وصال ومواصلة.

«ويعتبر التواصل حاجةً تحدث بالحواس أو اللغة.. وهو نواة كل علاقة بشرية»(١) وأولها مع الأم بالمعنى الحسي والعاطفي وتفترض دفق الغريزة العاطفية. ونتصور بأنَّ التواصل علاقة تبادل حميم بين اثنين تنتج عن قرابة أو صداقة أو بين اثنين من جنسين مختلفين حيث يفترض سلوكاً ومشاعر ورغبات وتبادلات تفضي بهما إلى علاقات وإلى الوصال أو العشق بما لا يمكن حصر دوائر هذه العلاقات.

ويتشكل التواصل، وفقاً لميدانه العام، من فعاليات كالمحادثات واستقاء التوجيهات والتسلية والمحاورات و«مناقشات والحصول على المعلومات» ويشعر الفرد العادي بأنَّ حياته متداخلة بكل ما له علاقة بميادين التواصل وفعاليتها وطرائق أدائها في إطار المجتمع»(٢).

ويعتبر المجتمع هكذا نسقاً «للإنساق التواصلية» المتعددة التي يستمر منخرطاً فيها ومتأثراً بها مهما تقدمت علوم الاتصال.

---

(١) McLuhan Marshall, pour comprendre les médias, Paris, seuil, 1968, P. 10.

(٢) Carey. James W: Communication as culture, Boston, Unwin Hyman, 1988, P.P. 33 - 35.

ثانياً: الاتصال وشروحاته

اتصل أي وصل شيئاً بشيء آخر. تعني في اللاتينية Communicare أي شارك وقاسم وتشارك واتصل. والاتصال أو المشاركة تقع في ميدان أو فكرة عامة تخص، ربَّما، مجموعة كبرى من الناس. وتعني Communication بالفرنسية بمعنى إيصال أمر ما أو رغبة إلى الآخر مما يفترض المشاركة والاطلاع، فتصبح الكلمة مرادفة للإعلام والتواصل.. بمعنى أنَّ الآخر قد يستجيب أولاً وقد يتفاعل أو أنَّه قد يرفض وينغلق عليه. فلا يعود هناك اتصال بل نية به.

يصعب إيراد بعض ما يواجهه الباحث من تعريفات لكلمة اتصال. وقد تفاجأ بالتفسيرات الكثيفة لهذا عبر تاريخ البشر. الكلمة «غنية جداً وحاملة تواريخ ودلالات متعددة.. خصوصاً وأنَّ المجتمع الحديث أسبغ عليها خصائص ومعانٍ وأبعاداً متعددة لا تحصى وحيث التبادل المتواصل والانفتاح الواسع على العالم طبع الاتصال باستحالة تخليصه من التجارب الفردية حيث تمثل الحرية والديمقراطية وغيرها من التجارب الإعلامية المعاصرة»[١].

---

(١) Wolton dominique, Penser la communication, Paris, Flammarion, 1997, P. 12-13.

١ ـ التعريف البيولوجي

ويأخذ الاتصال معنى حسياً حيث يتحول البحث إلى السلوك الحواسي الحقل الوحيد الذي يملكه الحيوان والذي يتم الابتعاد عنه بما يحفظ الحياة والذي لا يُسقّط نهائياً من حياة الجنس البشري كوسائط في التعبير. هكذا تحيلنا بعض الموسوعات[1] بحثاً عن كلمة اتصال إلى الاتصالات المعروفة لدى الكائنات الحيَّة الأخرى حيث علم السلوك الحيواني الفج والغريزة أو إلى الاتصالات غير الشفوية في تمييز لها من الاتصال اللغوي، إذ لا يكفي امتلاك اللغة للتكلم لأنَّ اللغة، في هذا الإطار، هي النموذج المنتقى والراقي في الاتصال مع العالم الخارجي والذي يميّز الإنسان عن سائر الكائنات.

والملاحظ أنَّ الاتصالات ما قبل اللغوية تشمل الأصوات والحركات الجسدية والإشارات العاطفية والصمت والصراخ ونبرات الصوت تحكمها الغريزة وهي ثابتة لدى باقي الكائنات بينها تتطور بشكل هائل لدى الإنسان، فيقال إنَّ الاتصال ثقافة وربَّما من مظاهر الحضارة الكثيرة التي تختلف باختلاف الشعوب في بيئاتها وعاداتها ومستوياتها العلمية والحضارية. وفي ظننا أنَّه كلما اتجهنا من الجنوب صعوداً إلى الشمال في العالم بردت حرارة الأجساد والبشرية، وخفت حدَّة الاتصالات غير الشفوية وربَّما الشفوية أيضاً، خصوصاً وأنَّ الإنسان يسمع

(١) Vocabulaire de psychologie, Lidis, 1999, Vol. V. P.P. 75 - 76.

أكثر بكثير مما يتكلم وقد يكون السماع تعويضاً ما عن الكلام.

٢ ـ خربطة غريزة الحيوان الاتصالية

هل الغريزة ثابتة عند الحيوانات والطيور ومتحركة لدى الإنسان؟

صحيح هذا الأمر، على اعتبار أنَّ الاتصال هو تلك السلسلة من الحركات ما قبل اللغوية. وهي التي تحدِّد، في ما بعد، تطور الأفراد وردود أفعالهم عن طريق الانفعالات البيولوجية. وتبدأ هذه الانفعالات في «تحسس الجنين لأصوات أمّه قبل أن تنضج قشرته الدماغية»[١]. ولهذا السبب يولي علماء التربية غذاء الأطفال حيّزاً مميزاً في علوم الاتِّصال، على أنَّ هذه الانفعالات تستمر بعد الولادة تتأثر بالخارج والداخل لتفرز عالماً معقداً من حالات التعبير والرموز والحركات. لكن الإنسان، بفضل قدراته العلمية، وتدجينه للكائنات الأخرى، تمكِّن، من دون أن يدرك، من إخراج الغريزة الحيوانية من جمهودها في الميادين الاتصالية.

المعروف أنَّ القردة تتصل، كما تذكر العلوم، بالأصوات أو الإشارات الصوتية التي تصل إلى سبع صرخات مختلفة، بينما يكاد قاموس الدجاج يكون محصوراً أيضاً في سبع أنواع من الصراخ تمثل مواقف معينة ومختلفة... وقد تغيِّرت هذه الأصوات بفعل التفقيس الإصطناعي فارتفعت إلى عشرة أنواع

---

(١) المرجع نفسه. ص. ن.

من الصراخ لترتفع إلى ما فوق ما تختزنه الغريزة من أصوات ووصلت إلى ١٢.

يضاف إلى ذلك، مثل النحل الذي يتراقص اتصالياً في سبع رقصات أمام القفير معبراً عن المسافة والاتجاه للزهور أو الغذاء المكتشف بما يمثل المسافات من مئة متر إلى ٦ كلم، وهو رقص يرسم في انحناءات جناحي النحلة زاوية تساوي الزاوية المشكلة من خيوط تقاطع الشمس وظلالها على القفير والتي تترجمها العاملات برموز غريزية ثابتة. وقد خربط، ربَّما، إطعام النحل السكر المذاب على باب القفير نظام غرائزها الاتصالية فصار قاموس النحل يحوي عشر كلمات(١).

٣ ـ الاتصال في التاريخ

لا نجد مغالاة في من راح يبحث من علماء الأنتروبولوجيا في أصل الإنسان، بهدف تحديد الاتصال، معتبراً أنَّه مسألة ملازمة لوجوده وحياته وعلاقاته مع الآخرين.

وما كلمة الإنسان سوى المصطلح المشتق من الأنس حيث التآلف والاطمئنان والإيناس ونقيضها كلها الوحشة والغربة والكدر. وفيها ملامح ثابتة على جوهر الوجود «بمعنى العلاقة والمشاركة، وإلاَّ فما كان للوجود من وجود»(٢).

---

(١) المرجع نفسه. ص. ن.

(٢) أبو النبل، محمود السيد؛ علم النفس الاجتماعي، بيروت، =

يصبح الاتصال، وفق هذه التعريفات، لا الحياة نفسها وحسب، بل أساس الثقافة والمعرفة الإنسانية. إنَّه أحد الشروط التي «يبتكر فيها الإنسان بعداً جديداً هو البعد الثقافي. ولا يقدّم هذا البعد في تلازمه مع الإنسان سوى عنصر واحد هو العلاقة التي تربط الإنسان بالثقافة حيث تحكمها جدلية القولبة [والنحت] ويبدو فيها الإنسان مشغولاً بإعادة بناء العالم الذي يعيش فيه، وهو ما يعرِّفه أهل البيولوجيا بالـ Biotope أو المدى الجغرافي، أو «البعد المخبأ» والمهمل في حضارة المدن الصناعية الحديثة[1] هذا المدى الثقافي للحياة هو المساحة الصالحة لكل كائن بشري بهدف تحقيق توازنه وسويته لأنَّ البعد الثقافي في الاتصال مسألة حيوية متطورة، إذ لكل حضارة وشعب طريقة أو مفاهيم في الحكم والنظر إلى حركات الأجساد وشروط أساسية لاكتمال المحادثة واللقاء والعلاقات.

إذا استنتجنا أنَّ الاتصال شرط إنساني مرافق للاجتماعية، لا يعيه الإنسان في عناصره وتداخلاته لأنَّه لا يمكن أن يعي نموه وحياته بشكل دائم، نتصور أنَّ التعريف والتحديد الذي عممته للأونسكو جاء معبراً:

«يدعم الاتصال الحياة ويحركها. إنَّه «اللغة والتعبير عن

= دار النهضة العربية. طبعة ٤، ١٩٨٥، ص: ٢٤٢.

(١) Hall, Eduard: La dimension cachée, Paris. Seuil, trd. de l'anglais par Amélie Petita, 1977, P. 17.

النشاط الاجتماعي الحضاري... إنَّه المنبع العام الذي منه ننهل الأفكار وهو يقوى عبر تبادل المشاعر بالانتماء إلى جماعة واحدة... إنَّه يترجم الفكرة إلى عمل أو سلوك ويعكس المشاعر والحاجات كلها بدءاً من الحركات البسيطة التي تحفظ استمرارية الحياة إلى مظاهر الخلق الكبرى»[١]. كما يعبّر تعريف آخر حيث الاتصال «لغة وطاقة الحياة الاجتماعية. إنَّه وعي الذات والجماعة ينعكس في سلسلة أو لعبة من العلاقات البيولوجية والاقتصادية والروحية في مزج في ما بين القديم والجديد، ونحن لا نتصل إلاَّ بما هو مشترك فينا أساساً مع الآخرين»[٢].

٤ ـ الاتصال في البعد النفسي

يعتبر الاتصال موضوعاً حديثاً في اهتمامات علم النفس، بدأ يثير ويستقطب الناس والباحثين، خصوصاً وأنَّ الاتصال كما يبدو مستويات متعددة بين المتصلين، ولكل منها قوانينه. وقد لا نعرف منها إلاَّ الملامح السطحية أي الذي يربط بين أفكارنا

---

(١) Unesco: Voix multiples - un seul monde, Paris, documentation Française, 1980, P. 3.

وترجم إلى العربية بعنوان: أصوات متعددة وعالم واحد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ١٩٨١.

(٢) Voyenne, Bernard: l'Information aujourd'hui, Paris, Armand colin, 1979, P. 9.

الشفوية وما نعتبره وقائع، ولكن العملية الاتصالية أبعد من ذلك وأعمق بكثير.

لقد سقط مع علم النفس التجريبي أو تغيَّر كثيراً الفكر المبني على المفاهيم والصفات المستقلة التي لا علاقة في ما بينها. وتوسَّع الكلام على الوظائف النفسية قبل الإحساس والتبصر، والبصيرة والانتباه والذاكرة أو على المواقف التفاعلية. «فما نشهده هو علاقات وأنماط علاقات بين الأشخاص، وهنا تكمن روح التجريبية... فنحن نعرف ليس الأشياء بحد ذاتها، وإنَّما الأشياء في ممارستها لوظائفها مع إدراكنا لها، وهي ممارسات لا تنم عن كميات معزولة وإنَّما مركبة ومتفاعلة...»[1].

مع علم النفس التحليلي يدفع فرويد التفاعل عمقاً نحو عالم اللاوعي. ويصبح عالم اللاوعي عبر الأدوات المعرفية والملاحظة باباً في التعرف على الذات المنفعلة. إذ يسترسل المرء في الكلام الحامل قسطاً من لا وعيه فيبرأ ضمن جدلية الكبت والكفت[2]. وإذا كان التجديد المبدئي لهذا العالم ذا طابع مرضي قوامه الحوار، فإنَّه طغى وتشعب وخاصة في مجال علوم الاتصال.

---

(١) Watzlawick. P., helmick. Bearn. J.Jacks on.d., une logique de la communication, trad. de l'anglais par Janine Morche, Paris, Seuil, 1972, p. 22.

(٢) ترجمة كلمة défoulement التي نراها أكثر تعبيراً من «تنفيس».

يرى فرويد «إنَّ المعالجة النفسية تقوم على تبادل كلام بين المريض والطبيب النفسي المحلل. يتكلم المريض ويقص الحوادث التي حصلت في ماضيه وانطباعاته الحاضرة، يشكو يعترف برغباته ومشاعره. ويوجه الطبيب سير الأفكار، ويوقظ الذكريات، موجهاً الانتباه في اتجاهات مختلفة، مقدماً الشروحات ومراقباً انفعالات الفهم وعدم الفهم لدى الآخر...»[١].

والاتصال في هذا المجال التحليلي يكاد ينحصر إذن في الاتصال المرضي La Communication pathologique أو استحالة الاتصال وخاصة في حالة الفصام وغيره. ونقول يكاد لأنَّه علم ساهم في كشف الكثير من الأمور اللاواعية في الشخصية والتعرف عليها[٢]. لن نفصل هنا في قدرة النفس العيادي بشكل عام في لعبة المقابلات والاتصالات بين الأفراد والجماعات.

فالتواصل في الاتصال هو حاجة متخمة بالرغبة ومعزَّزة بالحواس والمشاعر المختلفة والعواطف والإشارات. إنَّها الرغبة في تحقق الذات الإنسانية. و«الاتصال بالمعنى النفسي هو الرغبة في الآخر التي هي الرغبة في الذات.. والرغبات لا قيمة

(١) Freud, sigmund, Introduction à la psychanalyse, Paris, Payot, 1965, p. 7.

(٢) راجع فصل الاتصال المرض في Watzlawick، المرجع نفسه، ص ٧١ ـ ١٠٨.

لها إن لم تجد أصداء لها في الآخر»[١]، إذن هو الشخصية في تفاعلها: «الاتصال هو الشخصية حيث السمات التي تمثل البنية الذهنية والعاطفية للفرد من حيث سلوكه وتعبيره»[٢]. وحيث الملامح والمفاتيح الأساسية التي تنعكس في اللغة والسلوك وخصوصاً اللاواعي منه (الأفعال الناقصة، الزلات في اللسان[٣]. . . إلخ).

٥ ـ البعد التقني في الاتصال

إذا كانت التعريفات قد ركزّت على ما هو مشترك بين اثنين حيث أنَّ هناك من يحرك، يتكلم، يكتب، يسأل، يشك ويبحث ويعكس ما يخالجه أو يعرفه في علاقاته مع فرد أو جماعة بواسطة الكلمات والإشارات والصور والوسائل

---

(١) Vocabulaire de psychologie, vol IV, p. 455 - 455.

(٢) تلح النظريات على مختلف مظاهر الشخصية فتفسرها بطرائق متعددة مختلفة كل الاختلاف من حيث تنظيمها، وغيرها، وأبعادها الوراثية والمكتسبة ونظام سلوكها. وقد ألح سيغموند فرويد على الوعي كأساس في السلوك وأكد السلوكيون على التعلم حيث يتحدد السلوك بنتائجه. وقد أورد Allport أكثر من مئة تعريف للشخصية جامعها المشترك السلوك الاتصالي:

راجع: Vocabulair de psychologie, vol I, p. 194, 376 et III, p. 317 - 319.

(٣) Freud, Sigmund: op. cit., p. 5 - 48.

المتفاوتة، فإنَّ الاتصال بالمعنى التقني يركز على هذه الوسائط فيعني الطرائق والوسائل والقنوات «والخطوط التي تربط مكاناً بآخر»[١] وفي هذا إشارة إلى التلغراف والهاتف والصحيفة والراديو والتلفزيون والأنترنت وغيرها ويصبح الكلام عن الاتصال هنا في ميدان الكلام عن وسائل الاتصال أو الإعلام الوظيفة الأساسية لهذه الوسائل.. أو الوظيفة الحديثة لها. ولأنَّ لا قيمة للبحث في الاتصال حيث التركيز على المعبِّر ومن يتوجه إليه التعبير وحسب بل «التقنيات التي تتمكن أو تعجز عن إيجاد ما هو مشترك بينهما»[٢]. وهنا نجد أنفسنا في ميدان تاريخ الاتصالات وأدواتها ووسائلها حيث ينحصر الاتصال في نقل مرمز ما Codage وفك هذا الرمز أثر التقاطه décodage[٣].

٦ ـ ما هو الاتصال؟

وبتعريف شامل، نستنتج أنَّ الاتصال هو قبل كل شيء تبادل عزيزي مع الآخر أي تواصل سيلازم الكائنات ويرتقي مع الإنسان ليعلم ويعلن فيتخذ أشكالاً متنوعة ويستخدم أساليب متنوعة لها علاقة بدرجة تطوره بدءاً بصرخة الولادة وما قبلها ثم

---

(١) رشتي: جيهان أحمد: الأسس العلمية لنظريات الإعلام، القاهرة، دار الفكر العربي، ط ٢، ١٩٧٨، ص ٤٤.

(٢) Guillaume, Philippe: Les mots et les hommes, les procédés de la communication, Paris, Economica, 1988, p. 109.

(٣) Encyclopédie de la pléiade, le langage, Paris, gallimard, p. 146.

تفتح الحواس وغيرها ونموها عبر الإشارات والصور والرموز ثم الأفكار والمفاهيم وصولاً إلى المناغاة والحكي والكلام أو الأصوات المفهومة والكتابة فالشبكات التي بدأت بالهاتف ووصلت إلى الأنترنيت وقبلها الإذاعة والتلفزة والأقمار الصناعية وبنوك المعلومات وغيرها. الاتصال بهذا المعنى شامل وتحت لوائه تنضوي مجموعة أخرى من المفاهيم والمصطلحات تتفرع عنه فتتلاقى في الأشكال والمضامين والأهداف، فنجد الصحافة والإذاعة والكتاب والڤيديو والسينما والمسرح والخطابة... إلخ.

ثالثاً: الإنـبـاء

يقودنا هذا التعريف الشامل للاتصال إلى ضرورات اعتماده في وظائفه على الإنباء. لكنّه لا ينحصر ضمنه على الإطلاق كونه يفترض، كما أشرنا، حضوراً آخر أو حضور الآخر دوماً أو ينشده ويتخيَّله، بينما لا يحتم الإنباء هذا الحضور الحي أو أي حضور آخر.

وإذ ينبىء المرء نفسه بالشيء أو ينبئه أحد به عن طريق الملاحظة المباشرة للعالم المحيط به أو عن طريق الإصغاء والقراءة، فإنَّما تتفرض هذه العملية أن يكون متلقي النبأ غير عالم بهذا الشيء أو الموضوع وإلاَّ خفَّ معناه.

ويوحي النبأ باحتكار نوع معين من المعارف والأخبار حيث للمعرفة سلطة ما كانت شائعة في الماضي، كما يوحي

بالدهشة والحشرية والجذب. هكذا نفهم أنَّ الإنباء هي التسمية القديمة للإعلام الراهن فيصبح النبأ هو الخبر الذي نتلقاه وحسب عفوياً أو آلياً وكأنَّه للعلم به لا للمعرفة عنه.

والإنباء هي التسمية المستمرة في تحديد وظائف الوكالات التي تعمل على جمع ونشر الأخبار التي تكون شفاهية أو مكتوبة بلغة سريعة غايتها السرعة في الوصول إلى الوكالات أو وسائل الإعلام.

والنبأ هو الكتابة الفجَّة أو النص الفج الخاضع لفنون المقابلة... لكنه لا يخضع لقواعد وحدود ومعايير لغوية، همّه الإيصال عن طريق الاتصال لمجموعة من المواد الخام المكتوبة التي تمثل الأحداث والوقائع[1]. ونعني بها مواد وكالات الأنباء وهي أضحت بالمعنى المعاصر، بالإضافة إلى شكلها الخام، نصوصاً جاهزة منقحة للطباعة أو مقالات لكتاب كبار أو معلومات مصاغة وتحقيقات... إلخ. لكنها مواد بحاجة دائمة إلى إعادة صياغة.

رابعاً: الإعـلام

مصدر علم وأعلم واستعلم بمعنى استخبر عن الأمر وأبلغ

---

(١) نسيم الخوري، الكتابة الإعلامية، فن الخبر، منشورات الدار الصحفية العربية للأبحاث والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٨، ص: ٣٩ ـ ٤٣.

عنه. وتعني نقل خبر أو معلومات عن حادثة معينة أو شيء معين أو إنسان. ويشتق الإعلام من الاتصال كونه الوظيفة الأساسية للاتصال بالمعنى المعاصر. ويفترض الإعلام لقوته إخضاع شتى الطرائق والوسائل والأساليب الاتصالية الشفوية وغير الشفوية.

و«تعود كلمة الإعلام في أصلها اللاتيني إلى Communis أي القضية والمسألة بما يؤكد المشترك بين اهتمامات الناس، لأنَّ الفعل اللاتيني Communicare بمعنى اتصل تشير إلى المشاركة، وإشاعة وتعميم ما نعرف، وهو المعنى الذي تلقَّفه الاتصاليون المعاصرون للكلام عن الإعلام الجماهيري أو الاتصال الجماهيري... فلا تأخذ القضية مداها إلاَّ بإشاعتها والإعلام بها أو وضعها بتصرف الناس[١]».

هناك علاقة مهمة بين الإعلام والمعرفة إذن. فالعلم بالشيء يعني المساعدة في إزالة الشكوك والغموض من أمام المستعلم ليقرب من تقليل الاحتمالات والتساؤلات والإجابات حول هذا الشيء... إننا أمام تكرار ما ورد حول الإنباء لكن تحقيق الاتصال يبدو، على هذا المستوى، ينمو قدماً نحو مسافة معرفية أو اطلاعية أكبر... وهي المعرفة التي لا يفترض توقعها لأنَّ المتوقع يساوي صفراً فيخرج من دائرة المعرفة. لكن «إعطاء معنى كمِّي لمصطلح «الإعلام»، وتمييزه عن المعرفة

---

(١) Encyclopédia Universalis, 1999, version 5, information.

حديث نسبياً... حيث اتخذت الأدمغة لا صفتي التلقي والربط وحسب بل المراقبة والذاكرة... هكذا يصبح الإعلام معرفة في اللحظة التي يدخل فيها حياة المتلقي النفسية الواعية لشخص ما، ويبدو الفرق بين التعبيرين مهماً أكثر من طفيفاً لأنَّ التجريدين والإعلاميين ينتمون في تفكيرهما إلى مستويين مختلفين وزمنين مختلفين: ماض وحاضر»[١].

يتناقض هذا التوجه، إلى حدٍّ كبير، مع المدرسة الفرنسية التي تمعن في التأكيد على المضمون والطريقة التي ينقل من خلالها المضمون أي «تعنى بشكل دائم بالمعرفة وطرائقها أو تقنياتها وسبل معالجتها أو مؤسسات بثها»[٢] ويتخذ الإعلام صفة تربوية تعني «عملية اكتساب وتقديم المعرفة عن واقعة ما... أو تبادل المعلومات والمعارف حول وضع أو موضوع،...»[٣].

---

(١) Elie Reboul: information et pédayogie, casterman, Paris, 1977, p. 22.

(٢) Francis balle: L'information, éd laroussse, Paris, 1977, p.p. 14-15.

(٣) Encyclopedie Universalis. Ibid.

١ ـ الإعلام والإيصال

وإذا كانت هذه الأفكار تأخذ قيمتها في متابعة فرنسا ومعها أوروبا في التأكيد على المضمون كموقف من المعرفة والإعلام، يستمر المراقب في تلمسه حتى وقتنا الراهن، وبشكل صارخ، فإنَّها قيمة تبدو مضاعفة إذا عرفنا أنَّ المدرسة الإنكليزية تلح على الإيصال في الإعلام.

نجد في اللغة الإنكليزية أنَّ جمعاً حل بين مصطلح الجمهور Mass الإنكليزي والوسائل بمعنى Média المصطلح اللاتيني، فأصبح يدور الكلام عن وسائل الاتصال الجماهيري أو وسائل الإعلام الجماهيري(١). ولقد سقطت صفة Mass في أثناء الاستعمال فبقيت كلمة الميديا Media اللاتينية كمرادفٍ لوسائل الإعلام والاتصال في معانيها الواسعة والواردة في مختلف اللغات بما فيها العربية مشكلة علامة العصر الراهن. «الإعلام، بهذا المعنى، شكل من أشكال الاتصال بالجماهير التي تضم الدعاية والإعلان والتعليم والعلاقات العامة والإقناع إلى جانب الإعلام»(٢).

وسواء ركز الإعلام على المضمون والشكل أم على الهدف أو المتلقي، فهو الذي يفترض أن يمنح الاتصال ثماره

---

(١) Francis balle: Ibid.

(٢) إبراهيم إمام: الإعلام والاتصال بالجماهير، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٦٩، ص: ٢٨٠.

في اكتماله أو محاولة اكتماله. وهنا تكمن الصعوبة في الإيصال تحديداً لأنَّ «الإيصال هو القيمة النسبية للمعلومات التي لا تخضع للعلم والموضوعية وحسب، بل إلى عالم مليء بالإسقاطات أثناء فعلي النقل والتلقي على السواء وهو ما يدخلنا عالماً مغايراً من التوقعات والافتراضات، لأنَّ المُعلم وهو يُعلم ينقل لا وعيه حيث الرغبات والنوايا والمشاعر والمعلومات التي قد تختفي لصالح إثبات الوجود والبقاء»(١).

٢ ـ الإعلام والمعلومة

ويبقى هناك فرق بين الإعلام والمعلومة مهما كان شكلها محكية، مكتوبة، منشدة، مغناة، مرسومة، راقصة، إشارات... ومهما اختلفت تنقلاتها لأنَّها أي المعلومة صاحبة موضة خاصة. «إنَّها الكلمات التي تشابه الثياب»(٢).

يبقى هذا الفرق بينهما حيث «أنَّ المعلومة هي وستبقى على مستوى المصدر مرمزة لدى المرسل، وعندما تدور تفك رموزها لدى المتلقي لتصبح من جديد معلومة جديدة. ليست المعلومة هي التي تنتشر وتدور بل الرموز والإشارات التي

---

(١) أحمد جيهان رشتي: الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١، ص: ٤٤.

(٢) Colette Bizouard: Vivre la communication, 2ème Ed, chronique sociale de France, Paris, 1980, p. 161.

تشكل المرسلة (اللغة)»[1].

٣ ـ الإعلام ووسائل الاتصال

يعتبر الإعلام اليوم من معطيات المدنية ولكنه اتَّخذ في هذا العصر، تبعاً للإنجازات التقنية، أشكالاً خاصة بدَّلت في نوعية العلاقة البشرية من غير أنَّ تبدل في طبيعتها، وجعلت منه واحدة من أدق وسائل التأثير على الإنسان فرداً كان أو جماعة.

ونرى، على العكس من ذلك، كيف استطاعت هذه الإنجازات أن تبدل العلاقة البشرية وطبيعتها على السواء. فما عادت العملية الإعلامية قضية انتقال المعاني بين الناس مرسلين ولاقطين، متحدثين ومستمعين بل تساوت هذه الإنجازات وصارت هي الإعلام وطغت بشكل كبير باتت فيه السلطة التي تفوق مجمل السلطات الأخرى.. وغدا الكلام عن الإعلام يعني في شكله الفعلي الكلام عن وسائل الإعلام حيث طغيان الشكل على المضمون من دون اعتبار كبير للتحديدات والتقسيمات التقليدية، بل الانصراف إلى كيفية تغطية العالم عن طريق الشبكات والأقمار الاصطناعية وبنوك المعلومات والأنترنت وغيرها.

شغل الإعلام في موازاته وسائل الاتصال العصر بحيث

---

(١) أنيس مسلم: وسائل الإعلام بين الرأي العام والإرادة الشعبية، التعاونية اللبنانية للتأليف النشر، بيروت، ١٩٨٥، ص: ١٩.

بات يشكّل مجموعة هائلة من الوقائع والحوادث والمعطيات التي تمثل حقل التوظيف بمعناه الشاسع.. إنَّه المهنة الضرورية في نجاح مختلف الوظائف والمهن الأخرى.

وبسبب من شراسة التطور في وسائل الإعلام بات الباحث يجد كلاماً يفرق في توصيف مهنة الإعلام، «كفن من فنون استقصاء الأنباء» ومعالجتها ونشرها على الجمهور بالسرعة التي تفوق ظهورها، أو الكلام عن «جمالية الاتصال بالمعنى العصري للكلمة حيث كانت الجمالية مختصة بالفلسفة الفنيَّة. بالمعنى التقليدي، وبتناولها المخيلة توسعت المقاربة الجمالية لنفرق في نشاطات وأشكال ووسائل الاتصال حيث الإعلان والتعليم والترفيه والعلاقات العامة وتنظيم العمل.. وكلُّها تفترض إعادة تقييم لجمالية الإعلام على ضوء تعبيرات أو مفاهيم العلاقات الاجتماعية بالعودة إلى اللغة ولغة الجسد...»[١].

خامساً: وظائف الاتصاليّة

يمكننا فهم دور الإعلام من خلال تعداد مجموعة من الوظائف الأساسية التي تمثل العملية الاتصالية وفي رأسها:

١ ـ الإعلام الذي يعني جمع وتخزين ومعالجة ونشر الأنباء

---

(١) Jean Caune: Esthétique de la communication, P.U.F, Paris, 1997, p. 5.

والبيانات والصور والحقائق والرسائل والآراء والتعليقات المطلوبة من أجل فهم الظروف الشخصية والبيئية والقومية والدولية والتصرف تجاهها عن علم ومعرفة، والوصول إلى وضع يمكن من اتخاذ القرارات السليمة.

٢ ـ التنشئة الاجتماعية التي توفر رصيداً مشتركاً من المعارف يمكّن الناس من العمل بفعالية في المجتمعات التي يعيشون فيها فيتآزرون واعين لمشاكلهم بما يحقق مشاركتهم في الحياة العامة.

٣ ـ خلق الدوافع وتعني حث الاختيارات الشخصية والتطلعات ودعم الأنشطة الخاصة بالأفراد والجماعات بهدف الانصباب الكلي على تحقيق الأهداف المرجوة.

٤ ـ الحوار والنقاش.

٥ ـ التربية حيث يلعب نشر المعرفة الدور الذي يعزز النمو الثقافي ويكوّن الشخصية ويكسبها المهارات والقدرات.

٦ ـ النهوض الثقافي عن طريق نشر الأعمال الثقافية والفنية بهدف المحافظة على التراث، والتطوير الثقافي للمجتمعات عن طريق توسيع آفاق الأفراد وإشباع حاجاتهم الجمالية وقدراتهم الإبداعية.

٧ ـ الترفيه عن طريق إذاعة الروايات والرقص والأدب والموسيقى والمسرحيات... إلخ من خلال العلامات والرموز والأصوات والصور بهدف الإمتاع والترفيه.

٨ ـ التكامل في ما يوفرّ للأفراد والمجموعات والأمم التنوع اللغوي وحاجات التفاهم والتعرف على تطلعات الآخرين وثقافاتهم[١].

سادساً: فلسفة التفاعل والمقابلة

يستعمل الناس منصاعين وسائل الإعلام وهم يعرفون عدم تعويضها عن التواصل الحي والمباشر الشفوي والجسدي. ففي كل اتصال قدر من التواصل لكن التواصل أقوى من الاتصال وأكثر فاعلية. وما التطور الهائل في صناعة وسائل الاتصال سوى التخفيف من حدَّة التفجُّر في الطاقة التواصلية التي تحمل ذات الإنسان[٢].

وإذا كان الناس يدخلون أكثر فأكثر في مناخات من الإعلام والأنباء التي يخفُّ فيها منسوب الاتصال ويكاد يختفي التواصل، فإنَّ الناس يعيشون عالماً من الحقائق الخيالية، والمقابلات السريعة الباردة عبر شاشات الزجاج المتنوعة من أنترنت وهواتف خلوية وغيرها.

هكذا يتّخذ الشكل المثلث حضوراً كاد أن يكون مقدّساً

---

(١) Michel Souchon: diffusion de l'information et rapports d'autorités, études, Paris, 1970, p. 386.

(٢) نسيم الخوري، الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥، ص: ٤١.

عبر التاريخ، فالاتصال سواء أكان شفهياً أم مكتوباً أو بحركات الجسد فهو خاضع للآخر أي آخر تتصل به وتتفاعل معه، وبتفاعلهما هذا كانت تولد الرسالات والحضارات والأفكار. ويمكن القول، خلافاً لما سبق، أنَّ زمن التلقِّي قد ولَّى بفضل وسائل الإعلام، **وبأنَّ الشاشات المغرية الملونة التي تملأ حياة الناس تُسقط منابر المعرفة وسلطاتها على مختلف المستويات والمراتب: العسكرية والدينية والقانونية والتربوية والسلطات التقليدية الأخرى. فالشاشات تقرب الناس ولا تبعدهم.**

وإذا كان البشر قد خرجوا من الإشارات والرموز في الاتصال، فإنَّهم يعودون مع هذه الألفية الثالثة إلى نقطة البداية أي إلى الرموز والإشارات الجديدة الاتصالية عبر الشاشات. فالاتصالية فلسفة صيغت على أشكال أسئلة تعيد أسس الحوارات الأولى منذ الأسس الأولى لهذا العالم، منذ بكر الحضارات إلى اليونان وبارميندس حامل أول سؤال أشاع عظمة الشك وخربط مسلمات الحواس في تلاقيها وجدليتها مع الكون، وصولاً إلى ديكارت وكانط وهايدجر وهيغل وسارتر والمذاهب الفلسفية المعاصرة المستغرقة في البيئة والأوزون وأمراض السيدا والسارس والجمرة الخبيثة وغيرها من المسائل التي تكاد تخرج العالم من دائرة السؤال إلى دائرية الجواب الذي يكاد يكون أميركياً مستغرقاً في المسائل والأفكار الجاهزة.

وهنا نذكّر بمقولة آنشتاين في النسبية التي تبقى بالمرصاد

لدحض كل فكرة أو دولة ترسخ الفكر الأحادي، وهي مقولة تلف مساحة الفكر البشري في قدراته الاتصالية حيث تعتبر المقابلة بذرة المعارف البشرية والعلوم المتشعبة أساس طاقاتها في النمو.

فالمثلث في تفاعل زواياه وأضلاعه هو الوجود المتكاثر الذي أعاد الإنسان إلى ذاته للبحث عنها، وصار مفهوم الرياضيات أرقاماً في نقلة الحواس إلى مصاف التجريد. وفرض هذا الوجود المتكاثر تكاثر الملاحظة وتشعبها، وهمّ بـ«الأنا» بحثاً عن الآخر مرآة الذات والكون، وكثرت العلوم الإنسانية. وبدت التفاعلية في عمق التأسيس للفكر التجريبي[١]، حيث يستدعي الكلام في أثناء المقابلة مجموعات عن الوظائف الجسدية والنفسية المتداخلة والخلافة والتي تصبح «ضبابية» تعكس عالم اللاوعي.

ويصبح عالم اللاوعي عبر الأدوات المعرفية والملاحظة باباً في التعرف على الذات المنفعلة. إذ يتكلم المرء فإنَّما يحمل شيئاً من لا وعيه فيبرأ ضمن صراعات الكبت والكفت[٢]. وإذا كان التحديد المبدئي لهذا العلم ذا طابع مرضي قوامه الحوار، **فإنَّه طغى وتشعب وخاصة في مجال علوم**

---

(١) Watzlawick. P., helmick. Beauvin Jacks ON.D., op. cit., p. 22.

(٢) الكفت تكراراً ترجمة لمصطلح défoulement بالفرنسية من فعل كفت يتضمن سلوكاً صادقاً وعنيفاً وكلياً.

الاتصال لكنه الاتصال المحكوم بالفهم وعدم الفهم لدى الآخر[1].

ويكاد ينحصر الاتصال في هذا المجال التحليلي في الاتصالات المرضية أو استحالات الاتصال أو صعوباته التواصلية، وخصوصاً في حالات الفصام، وهو علم يساهم بشكل فعّال في كشف الكثير من النوازع أو المشكلات اللاواعي في الشخصية والتعرف عليها ومحاولة الخروج منها[2]. وما التكرار، في هذا المقام، سوى للإشارة إلى قدرة علم النفس العيادي في تفصيل لعبة الاتصالات والمقابلات بين الأفراد والجماعات.

سابعاً: أدوات الاتصال

أدوات الاتصال أفقياً هي اللغة كمقولة اتصالية «لمفهومة بين شخصين واحد متكلم والآخر متلق»[3]. اللغة أساس الاتصال الشفوي أو الكتابي بين اثنين. يعتبرها رولان بارت «مؤسسة، جسداً مجرداً من المفاهيم... والكلام يتبعها وهو الجزء الآني من هذه المؤسسة يسحبه الإنسان ويستخدمه

---

(١) Freud, Ibid, p. 7.

(٢) راجع فصل الاتصال المرضي في Watzlawick. P. المرجع نفسه، ص ٧١ ـ ١٠٨.

(٣) Kristeva Julia, Le langage, cet inconnu, Paris, seuil, 1981, p. 13.

لضرورة الاتصال... وكل كلام مستقى بالتالي من اللغة... وهنا تكمن جدلية المصطلح والتبليغ (الاتصال)..»[1] وظيفة اللغة بهذا المعنى، «إذن، هي الاتصال... بعدما كانت أساساً حاملة للأفكار وطريقة للتعبير...»[2].

باشلار في كلامه عن الدور القوي للرفض في تكوين العلوم اعتبر أنَّ علم اللغة كامن في رفضها اختصار أغراضها إلى فاعلية الاتصال[3]. واللغة هنا لا تحمل وظيفة الاتصال لأجله الاجتماعي، أو تحمل مادة الفكر لإثبات وجوده وواقعيته وتكامله، لأنَّ هذه المادية المكتوبة أو الشفوية التي تنتج وتعبر عن الفكر «سيستام معقد تختلط فيه إشكالات مختلفة. له خاصية تفترض معرفة المظاهر والعلاقات. إنَّه سلسلة أصوات متصلة، وشبكة إشارات مكتوبة أو لعبة الإشارات»[4]. هناك إذن وجوه أخرى لظاهرة اللغة ووظائف أخرى. من هنا يعتبر «الاتصال الحد الأدنى والأبسط لإنتاج أي نشاط لغوي»[5]. فالمرسل والمتلقي والخطاب، وموضوع الخطاب كلها أدوات

---

(١) Barthes, Roland, Sytème de la mode, Paris, seuil, 1967, p. 28.

(٢) Martinet. A, Eléments de linguistique générale, A. Colin, Paris, 1970, p. 9.

(٣) Flahault, François, le parole intermédiaire, Paris, Seuil, p. 9.

(٤) Kristeva, J. المرجع نفسه، ص: ١٣.

(٥) Jakobson, R., Essais de linguistique générale, Minuit, 1964, p. 213.

ظاهرية للاتصال. وتصحب الاتصالية عمقياً أو عامودياً الابتعاد عن اختزال اللغة النصية إلى تبادل أفكار. اللغة بهذا المعنى هي الكتابة وهي الكلام والحركة والصوت. إنَّها تبادل لا يرتكز إلى معلومات ولكن إلى تغيرات تتصاعد مع تغير وتصاعد التوتر، أو البُعد النفسي لعلم اللغة[1].

١ ـ ما هو الكلام؟

هو إعادة إنتاج اللغة. أصوات لغوية منتجة تصبح ممكنة بفعل ضوابط اللغة وأنظمة الخطاب، ويسهل تدوين الأشياء شفاهياً في المساحة كي يتم تحقيقها. هذا لا يعني أنَّ النشاط اللغوي لا يسمح إلاَّ بنقل المعلومات. ولكن جعل هذا وظيفة اللغة الأساسية هو تجاهل ما يحصل. فالفعل اللغوي في بُعده الكلامي «هو فعل إرادي ولا إرادي ذكي يشمل مجموعة لمركبات الفردية ـ الشخصية يدخلها المتكلمون، إضافة إلى الأفعال الصوتية الضرورية لتعيد هذه التركيبات. . .»[2] والخطاب بهذا المعنى هو تجسيد الكلام في اتصال حي[3]. . . فإلى أي مدى يعبّر المتكلم عن نفسه في أثناء الخطاب أو عبر نص الخطاب؟

---

(١) إشارة إلى العلوم الألسنية والسيمانتية أيضاً بحيث يصبح الاتصال بحاجة إلى علم النفس الاجتماعي وعلوم الألسنية لفهمه.

(٢) Kristeva. J. المرجع نفسه، ص: ١٥.

(٣) المرجع نفسه.

يبدو المتكلم حراً ومقيداً في آن واحد. إنَّه لم يوجد قبل الكلام، ويتشكل كموضوع فاعل ومتفاعل في العالم كلما نما وتقدم في السماع أولاً ثم الكلام ثم كلام السماع وسماع الكلام. الإنسان يتصور كلامه كلامه الخاص، وعندما يعبر أو يتكلم كما يقال في العامية، فإنما يتكلم بالضبط محققاً ذاته ومنتجها لكنه قد يعبر، وحريته في التعبير ليست منحة من الغيب أو العقل ولكن من «اللعبة» التي تمنحه إياها أنظمة اللغة الرمزية التي بدونها لن يتكلم ولا يصبح إنساناً. وهو مقيد لأنَّه عاجز عن التعريف الكامل بحضوره إلى حدود تشكل جزءاً من السيستام القائم مسبقاً. الإنسان ليس «هو» إلاَّ عند الكلام إذ يأخذ مكانه حيال الصورة التي يعتقد أنَّ الآخر كوّنها عنه... إذن، يصبح الإنسان في فاعلية اتصاله نوعاً من التكتيك. هذا الكلام يشابه كلمة من الذاكرة قالها جبران خليل جبران في رسالة بعث بها إلى ماري هاسكل «كلمتي لم يظهر منها سوى الدخان». أي دخان الحقيقة والواقع في الذات. وهنا يصح الكلام عن وهم الواقعية في أشكال الاتصالية أو أسطوريته «لأنَّ واقعية الخطاب تقوم على المعاني المتجذرة الموروثة من المؤسسات والاستعمال، واختلاف مفاهيم المعرفة، والعالم السيميائي للجماعة الاجتماعية التي يعود إليها الخطاب...»[1]. إذن في الخطاب نشهد آثار الحقائق لأنَّ في اللغة حسب بارت

---

(١) Flahault. F. المرجع نفسه، ص: ٧٦.

«أمر يقاوم أو يبقى في القعر وهو غير قابل لتحديده. فالخطاب أو الكلام هو ما يطفو على السطح. لكن جذوره ليست في الهواء كما يتراءى لنا، وإنَّما في الأعماق...»[1].

هذه الرؤية نجدها لدى روشفوكو، وستاندال وبروست ومجمل الكلاسيكيين، كما نجدها في علم ظواهرية سارتر، والعلوم الألسنية والسيميائية وعلم نفس لاكان التحليلي.

جاك لاكان يطرح القضية بشكل معقد فيتساءل ما هو الكلام؟: «... أي مفهوم لن يعطي مفهوم الكلام ولا حتى مفهوم المفهوم، لأنَّه ليس معنى المعنى، لكنه يمنح المعنى ركيزته في الرمز الذي يجسده في فعله. والفعل يفرض الموضوع ولكن في الفعل يفترض الموضوع موضوعاً آخر. ويعود الموضوع إلى الآخر ليصبح مماثلاً له، فيظهر الكلام مشابهاً للاتصال حيث لا يقوم المرء وحده بالتلفظ به بشكل معكوس، منتظراً الآخر كي يجعله صحيحاً... بل يتحول إذ يعلن الآخر أنَّه هو ذاته وهي المقولة التي أعطاها فرويد لكلمة اللاوعي.

وإذا كان الكلام اتصالياً، فهو ليس فقط كلام الشخص، لأنَّه يؤسس دائماً في توسطه مع شخص آخر يعالجه بدوره. وبهذا يشرعه على سلسلة لا نهاية لها، ولكنها ليست غير

---

(١) Barthes, Roland, in Flahault, préface de la parole intémediaire, Ibid, p. 9.

محددة بالطبع. إنَّها تقفل وهنا إشارة إلى الكلام الذي يتحقق مادياً في الجماعة الإنسانية، إنَّها جدلية المعرفة»[1]. بهذا لا بدَّ من أن نفهم أنفسنا كي يفهمنا الآخر، ولكي يفهمنا الآخر نحن بحاجة إلى فهم الآخر[2]، بحيث تصبح الوظيفة الأساسية للحوار ليس في نص الخطاب وإنَّما كونه محكوم بتفاعلات المواقع. وجدلية المعرفة التي أشار إليها لاكان تبدو لعبة أو تكتيكاً كما أسلفنا. إنَّها أقرب إلى لعبة الشطرنج في فن الاتصال «ولعبة الشطرنج إعلام دائم متبادل، وذاكرة اللعب لا معنى لها إلاَّ باتصالها بحاضر المواقع والملاحظة...»[3].

٢ ـ أراك تراني

في مجال التكتيك تبرز العقد والدهاليز والدوائر المقفلة التي فصل فيها لينغ[4]: أنا أراك وأنت تراني. أرى سلوكك ترى سلوكي. لكنني لا أرى ولم أرَ ولن أرى انطباعك عني، كذلك لن تتمكن من رؤية انطباعي عنك، لا يمكنني القيام بتجربة تجربتك أو انطباع عن انطباعك ولا العكس. نحن الواحد والآخر لا نرى. كل الناس لا ترى بعضها البعض.

---

(١) Lacan. J. Ecrits Le Seuil, Paris 1966, p. 351.

(٢) Hora, Thomas, Tao Zen and existential psychotherapy, psychologia 2, 1959, p. 236 - 242.

(٣) Watzalawick, p. المرجع نفسه، ص: ٢١.

(٤) D. Laing. Ronald, op. cit., p. 9-10.

وتصبح الحياة كما ذكر فلوبير في رسالة إلى موباسان: لا أحد يفهم الآخر في الحقيقة، نحن نعيش في صحراء.

هذا التكتيك المعقد في العلاقات الإنسانية يمنح البُعد الثالث للمعرفة مقابل البُعدين الأساسيين أعني المعرفة بالشيء والمعرفة عن الشيء. والبُعد الثالث يفترض الجشتالية أو الكلية التي تحسم أو تلاقي جدلية البُعدين:

هكذا إذن أراك تراني أراك.

في البُعد الرابع[1] تنفتح السلسلة إلى ما لا نهاية:

هكذا إذن أراك تراني أراك تراني تراني أراك... أراك تراني حتى الهلوسة والصمت والنوم والغياب. وهنا تدخل في عالم الحدس، والمخدر، والبهاء في الرؤية والإشراق الصوفي. وتصبح المعرفة أو الحقيقة أو الواقع أموراً غير موضوعية. ليست خارجة عنا وإنَّما تجارب ذاتية نؤلفها عن الوجود الآخر ويتعذر علينا البرهان البشري على موضوعيتها.

٣ ـ الاتصال غير اللغوي

إنَّ تفاعل طرفي حوار حول معرفة معينة له إذن تأثيره في تحديده للموقع الذي هو فيه ومنه يتكلم، كما له دوره في خوف الآخر المستمع من أشغال موقعه. والموقع يتخطى اللغة

(١) Watzalawick, p. المرجع نفسه، ص: ٢٧١.

ليطاول الصمت أو الإصغاء الذي هو موقع آخر واتصال مختلف. وهنا ندخل عالم السلوك وعلم مسرح الحركة، لأنَّ كل سلوك وليس فقط الخطاب مقابلة واتصال، وكل اتصال حتى الإشارات التي تمهد إليه جزء من السلوك. فالتصرفات تؤثر في الآخر، وهو بدوره لا يمكنه إلاَّ الانفعال بهذه التصرفات. والمقارنة بين الاتصال اللغوي وأشكال الاتصال الأخرى توحي بأنَّ الإنسان يمكنه المغالطة في اتصال شفهي ـ لغوي وتكاد تضمحل قدرة الخداع والكذب في مجال الاتصال الحسي وتختفي المغالطة.

إنَّ التفصيل أكثر في الاتصالات المرتبطة بالحواس البشرية كأهمية النظر، ودور الإصغاء والسماع، والرائحة، والذوق، والاتصال اللمسي[١]. أو الاتصالات ذات العلاقة بالفنون مثل الرقص الذي يفترض صدق الجسد وأيضاً الموسيقى أمور أساسية في الاتصالات غير اللغوية. قد لا يمكننا تصوُّر جسدٍ يرقص كاذباً أو مخادعاً، وعليه نبني العمارة الاتصالية الأكثر

---

(١) نشير إلى مؤلف أساسي في هذا المجال بعنوان: «البعد المخبأ» وهو المساحة الصالحة لكل كائن من أجل توازنه. يصبح هذا البُعد لدى الإنسان ثقافياً، فلكل حضارة طريقها في النظر إلى تحركات الأجساد، وشروط المحادثة واللقاء، وحدود الحميمات. في الكتاب تعميق لأهمية المعرفة التي يكونها من يدخل في هذا البُعد المهمل في حضارة الكثافة الصناعية في المدن الحديثة.

Hall. Edward. op. cit.

صدقاً وصفاءً على الاتصالات الجسدية أو غير الشفوية.

يكفي أن نتذكّر، مثلاً، كيف يهرش الزعيم اللبناني وليد جنبلاط شعره بأصابعه في أثناء المقابلات، أو كيف يهزُّ برجليه بانفعالية ظاهرة، أو يكفي أن نلاحظ كيف يشبك الآخرون أصابعهم، أو يحركون رموشهم بسرعة فائقة أو يقضمون شفاههم السفلى، أو يرتبون ياقاتهم أو يتحركون في أمكنتهم تدليلاً على ضيقهم وتبرمهم، يكفي كلّ هذا لندرك أهمية الاتصالات غير اللغوية في أثناء المقابلات.

لقد عبر الإنسان في تاريخه الطويل، بهدف الخروج من إطار صورته المرسومة، فأجهد يديه وعقله لتحقيق استطالات لأعضاء جسده. فاخترع الدولاب امتداداً لرجليه، وبات لتطلعاته آفاق لا تحدّ. واخترع الهاتف والمذياع واللاسلكي في نوع من الاستطالة لسمعه أو لأذنيه. والمعروف أنَّ السماع هو الحاسة الخامسة التي تأخذ يقظتها في المرتبة الأولى، وعندما يكون الجنين في رحم أمه، يمكنه التواصل مع العالم الخارجي عبر سماعه الأصوات. واخترع الإنسان الناضور والتلفزيون امتداداً لبصره أو لعينيه اللتين تحملان حاسة الرؤية، وهي الحاسة الأخيرة التي تستيقظ في وظائفها بعد ولادة الإنسان كما هي الحاسة الأخيرة التي تموت بعد موته.

لم يتمكن الإنسان من تطويل حاستي الذوق والشم الحيوانيتين الأساسيتين لديه. بلى. لقد حاول ويحاول مطّ

غريزة أو حاسة الشم عبر الزهور الطبيعية واستخراج رحيقها، بحيث صارت العطور وسائل اتصالية وتواصلية متقدّمة بين البشر، وهو بهذا لم يفترق كثيراً عن الكائنات الأخرى الكثيرة المحكومة في تكاثرها واستمرارها بقوة حاسة الشم.

ولقد أشرنا، إلى دراسات أميركية، تعمل على تطويل حاسة اللمس عن طريق معرفة مشاعر الإنسان وانفعالاته بمجرد لمسه لمفاتيح الكومبيوتر ومقابس المعلومات. وفي هذا إعادة إحياء لعلوم قراءة الكف، والتدقيق في الأطراف العليا والسفلى للإنسان التي تحمل في أوعيتها الدموية أنواعاً لا تنهي من الاستطالات التي تنبىء أو تؤشر إلى أجهزة الإنسان الداخلية. ويكفي التمعن في قراءة رؤوس أصابع اليدين والكف والرجلين لمعرفة كيفية معالجة بعض المشاكل المرتبطة بالكبد أو القلب أو الأعصاب أو المعدة والرئتين وغيرها من عناصر الجسد في تناغمها.

وإذا كانت تقنيات الاتصال تعبيرات عن جسد الإنسان، وتوقه اللاواعي إلى الاستجابة لطاقاته المتنوعة في الاتصال، فإنَّ آخرها كانت الأنترنت، أي الاختراع القمة الذي يعتبر امتداداً لجهازه العصبي والذي به ترتبط كل الحواس الخمس المستطالة الأخرى.

الفصل الثالث:

فن المقابلة في الصحافة

أصبحت المقابلة المادة التي تسيطر على حياة الناس. كيفما تصفحنا صحيفة أو مجلة أو أدرنا قرص مذياع أو تسمَّرنا أمام شاشة، نجد بأنَّ المقابلات السريعة والطويلة «توك شو» تملأ عالمنا وحياتنا.

فقد انصبّ اهتمامي منذ ربع قرن على تجميع أكبر عدد من الصحف والمجلات الصادرة في العالم. نسخة أو أكثر، أتصفحها، أقرأها، أراقب طرائق إخراجها وألوانها وأحجامها ونوعيات ورقها المستعمل، أقارن بين أغلفتها، وطرائق صفها وهندسة عناوينها. وكان الغرض من هذا الأمر، البحث عن فرضية تقول: إنَّ الكلمة المطبوعة الصحافية ما زالت تنافس الوسائل الإعلامية الأخرى تكاملياً في جعل الكرة الأرضية قرية صغيرة في تنقل همومها وأحداثها، ليس في السرعة وحسب وإنما في ترسيخ معالم الأحداث.

الملاحظات الأولية التي تكونت بديهياً كانت كما يلي:

١ ـ هناك تشابه كبير بين هذه الصحف في أحجامها، مع

إهمال كامل لحركية المجتمعات. ليس بالمعنى الزمني وإنَّما بمعنى النشاط البشري الذي تختزنه اللحظة بين بلد وآخر.

كيف؟

عندما تواترت الحركة في المجتمعات الصناعية وأصبح الزمن يخضع للكثير من السرعة والتضاعف في الاختزال، كان يواكب هذه الفلسفات السريعة نتائج تقنية عملية مثل الكونكورد الطائرة التي أكلت بطء الزمن، والميكروكومبيوتر والمايكرويف وكل أنواع الشاشات والاختراعات الصغيرة المنمقة، وفي الموجة نفسها كانت تظهر صحف الجيب الصغيرة التي تسهل قراءتها في القطارات ومحطات المترو والعربات وفي الهواء وتحت الثلج.

كان هناك إذن تساوق في المنجزات وتناغم في مختلف أوجه النشاط البشري.

المفارقة أنَّ المجتمعات الاستهلاكية ومنها بلدان العالم الثالث مثلاً كانت تلجأ إلى استخدام كل هذا وأيضاً إيجاد صحف صالحة فقط للجيب في مجتمعات مشرقية محكومة بالهدوء والانتظار وغير شغوفة بالحبر والقراءة. وبالطبع يظهر هنا إدراك كامل للفلسفة الكامنة وراء اللجوء إلى هذه الأحجام الجديدة في الصحف، وجهل بحركية المجتمع المنتج والمستهلك على السواء.

٢ ـ هناك تشابه في الألوان والأساليب الطباعية وهو أمر

يعود إلى أنَّ وسائل الإنتاج الطباعية في العالم واحدة ويسهل اقتناءها وتشغيلها. كما أنَّ تشابهاً يبدو في طرائق الإخراج وهو أمر خاضع لفعلي التقليد و/أو «التماهي» بتجارب العالم الصناعي الأكثر تقنية. لا يمكنك الفصل مثلاً بين مجلة تصدر في عاصمة عربية وأخرى في كاليفورنيا أو كوريا الشمالية... إلخ إلاً باللغة، رغم أنَّ للإخراج وتيرته أيضاً المرتبطة بوتيرة حركة المجتمع التي تتباين بين قارة وأخرى. لا يستثنى من هذا الحكم إلاً ندرة من الصحف الصادرة في الشرق الأقصى وبعض البلدان الإسلامية، توشي صفحات صحفها ببعض المنمنمات تستقيها من تواريخها الهندسية والتصويرية القديمة (دراسة البطء في رسوم الديكور العربي القديم).

٣ ـ هناك رتابة في الأخبار والأحداث. فهي ورقة لا تتجدد تقريباً، إنَّها عجينة واحدة «ومن يراقب أخبار ونصوص الأعلام العالمية، يقع في الرتابة والتكرار، مع تغييرات قليلة، ظهور سياسي جديد، آخر يسقط أو يعزل، حرب تنشب، وحرب تنتهي... إنَّها نصوص تتلاقى تماماً في نهاية المطاف...»[١]. وهذا أمر طبيعي إذا عرفنا أنَّ خمس وكالات أنباء عالمية فقط تتقاطع العالم بأخبارها كل لحظة وتجوبه مئة مرة.

---

(١) Andre-Jean Tudesq, la presse et l'événement, Mouton, Paris, la Haye, 1973, p. 58.

٤ ـ هناك تراجع أو تقدم في تسلسل النصوص الإعلامية وتراتبيتها، وهو أمر مرده إلى ظاهرة القومية التي تبرز حادة عبر ملاحظة مواد العالم الإعلامية. إنَّها قومية مرهونة بالجغرافية والتاريخ والخصوصيات العائدة لكل بلد على حدة. «فالموضوع أو الخبر القوي قد يصبح ضعيفاً لدى قارىء ما والعكس بالعكس وهو أمر تابع لنسبية تقديرية غالباً ما تكون على علاقة بالقومية الجغرافية...»[١].

هذا على مستوى العاملين في إنتاج النصوص الإعلامية، أما تصرف وتطور تصرف الناس تجاه نص ما، فقد يعيدنا إلى مقولة «كانت» التي تنطبق بدورها على الصحافة: العالم لا يعرف كما هو ولكن كما يراه الناس. ولهذا فصورة الحقيقة غالباً ما تأتي مشحونة بأمراض لغوية وأيديولوجية وبالإجمال بأمراض تاريخية، ولهذا يظهر الخلاف، الذي أشرنا إليه، والتباين بالنسبة للمحتوى وطريقة الطرح، ومعنى الخبر والحدث وتراتيبتهما في ميدان الصحافة.

ولا يصبح اكتساب المحتوى الإعلامي واعياً إلاَّ عندما يفسر ويرتبط بشكل تلقائي بصور وذكريات. وهي عملية تهدف، لا إلى إضافة معارف جديدة وإنَّما لربطها بمعارف قديمة تسمح للوعي بأن يستوعبها.

وإذا كان «كل وعي ذاكرة» كما قال برغسون أي حفظ

---

(١) المرجع نفسه، ص: ٥٦.

وتكديس الماضي في الحاضر، تصبح وظيفة الذاكرة تثبيت الذكرى واستعادة حالة وعي ماضية وترسيخها. و«هي قدرة على حفظ خبر اكتسب وهضم»[1] وعندما يأتي دور الاستعادة، «لا تعيد الذاكرة البشرية ما اكتسبته بأمانة، فإما تفقره وإما تحوره، لأنَّها دوماً مطعمة بالخيال أي قدرة خلق المستجد من الماضي»[2]. وهنا يصح الكلام عن **الإسقاطات** في النصوص المكتوبة التي تسمح لنا بالتعرف إلى كيفية اختلاط الحقيقة بمعناها المجرد بحقائق ذاتية يسقطها الكاتب أو القارىء على النص موضوع البحث.

بهذا السياق نفهم، كيف أنَّ صحف العالم تتصدرها الأخبار المحلية في الدرجة الأولى، وهي الأخبار ـ «المرآة» كما تسمى في لغة الصحافة وأكثر من ذلك، «إنَّها امتداد للاتصال الشفهي... يجب الاعتراف بأنَّ الخبر المحلي هو مركز الاهتمام الأعمق الذي يبدأ من الذات دوماً ثم الأقارب والجيران والمنطقة التي ينتمي إليها...»[3].

وتصبح عملية اختيار الأحداث مرتبطة بالجمهور ومواقفه، وهو أمر لو أهملناه لصارت صحف العالم واحدة في المحتوى

---

(١) Elie reboul, op. cit., p. 30-31.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) فيليب غايار، تقنية الصحافة ـ ترجمة فادي الحسني، دار عويدات، بيروت، ١٩٨٣، طبعة ثانية، ص: ٣٦.

أو ترتيبه. . . «فالمظهر الأول من مقاييس الأهمية هو إذن في المصلحة المباشرة والقومية. . .»[1].

تثير هذه الملاحظة المتعلقة بالقومية انتقادات كبرى للعالم الرأسمالي وهي أصلاً من إنتاجه وذات توجه أميركي في مجال الصحافة، وهي بحد ذاتها تبقى أموراً قابلة للدراسة والرد وهو ليس بالأمر العسير، على الرغم من واقعيته وصحته العملية.

٥ ـ المقابلة أساس الصحافة، فهي في مفهومها القريب تشكل مادة أساسية من مواد الإعلام المكتوب وخاصة الأسبوعي منه. ولكن تعميق الملاحظة يوصلنا إلى أنَّ كل مواد الكلمة الصحافية المطبوعة أساسها مقابلة، علاقة بين شخصين أو أكثر. فالخبر الصحفي، والمقال، والتعليق، والريبورتاج المصور، والتحقيق الصحفي وكل الأبواب الصحفية التي نشهدها أساسها تغطية لحدث ما وهذا ما لا يتم إلاَّ بانتقال شخص من مكان إلى آخر سلكياً و/أو عملياً للمشاهدة والاستيضاح ونقل الحدث بعد تجسيده برموز لغوية مختصرة تعم العالم كله بعد دقائق وفي مختلف اللغات المعروفة أو غير المعروفة.

خارج المقابلة تصبح الأجهزة الإعلامية خاوية من المعلومات وجامدة، وتبدو الصحف بيضاء وشاشات التلفزيون

---

(١) الأنا هنا بمعنى الذات لا بالمعنى الفرويدي (الأنا والأنا الأعلى والهو).

خاوية إلاَّ من الصور الجامدة، وأجهزة الراديو تبث الموسيقى فقط والأغاني.

وإذا كان الوجود البشري أو الحي أساسه اثنان يلتقيان ثالثهما طفل بفعل التناسل وهي مقولة فلسفية منذ أيام اليونان الأولى، فإنَّ المقابلة هي لقاء بين علامة الاستفهام ونقطة الوقف بين جملة تساؤلية وجملة جوابية ثالثهما نص إعلامي، يشكل العمود الفقري لكل عمل صحفي.

أولاً: السؤال والجواب

ضمن دائرة هذه الملاحظة الخامسة، أجهد دوماً للتخفيف من حدة التفريق الأكاديمي بين اختصاصات متنوعة في كلية الإعلام والتوثيق، وأحاول التقريب بين الصحافة ووكالات الأنباء والإعلام والعلاقات العامة، وأجمع طلاباً في اختصاصات مختلفة ظاهرة حول أمر اسمه جامع «فن المقابلة».

فالمقابلة أساس الصحافة ووكالات الأنباء والإعلان وهي وراء العلاقات العامة أو الإنسانية. إذن المقابلة تحضن روح الصحافة وعناصرها كلها. إنَّها روح الجريدة ولسانها الناطق والبحث عن العناصر اللامقالة، Le non dit ومن هنا التركيز على «التلميحات» في افتتاحيات الصحف، التي هي أهم منها كلها، ولا يتم بناؤها إلاَّ وفقاً لمصادر معلومات لم تنقل معلوماتها إلاَّ عبر المقابلة والتلاقي.

ونكرّر بأنَّه «إذا كانت الحياة سؤال وطفل وحياة فالموت هو الجواب والانتهاء والاكتفاء. والمقابلة سؤال دقيق، بل السؤال فن دقيق، إنَّه الحوار بين الأنا التي تفاجىء والأنا التي تفجأ[1]. ومع المحادثة ترتفع الروح الإنسانية وتنتعش، تتفتت العوائق الذهنية، تتلامس العقول، وتتلاقح الأفكار، إنَّه سحر الاتصال الفكري.

والصحافي الذي ينفق عمره مع الناس والاتصال بهم هاتفياً أو مقابلتهم شخصياً يريد مصدر الأجوبة الشافية على أسئلته الحائرة، ومن حقه، بل من واجبه أن يبحث عن مقابلة، أو يطلبها براً وبحراً وجواً، لأنَّ هذا العمل يزيد المعلومات... ويوسع الآفاق...»[2].

وإذا كان التباين على أشده في النظرة إلى الصحافة، بين العالم المنتج والمستهلك، إذ يرى الأول أنَّها صناعة مقيدة بعدد الأسطر وخانات المقالات، والثاني يفترض الموهبة أساساً لها، فإنَّ المقابلة أساس الصراع وهي خارجه، فهي فن وليست علماً بالمعنى الدقيق للكلمة. إنَّها فن التعامل بين «أنا السؤال» و«أنا

---

(١) من محاضرة لـ عبدالله عبود ألقيت في قاعة المحاضرات في كلية الإعلام والتوثيق، الجامعة اللبنانية، ٣ نيسان ١٩٨٥.

(٢) والتر فاندايك بنجهام وبروس فكتور مور، سيكولوجية المقابلة، ترجمة فاروق عبد القادر وعزت سيد إسماعيل، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦١، ص: ٢٨٥.

الجواب» الذي يبقي على العلم سؤالاً، إنَّها أقرب إلى فن الشعر، وهنا نستعير كلمة الشاعر الفرنسي رينيه شار المعروفة بأنَّ «الشعر كشف لعالم يبقى بحاجة إلى الكشف». أليست مهمة الصحافة والمقابلة بالضبط مماثلة تماماً لما نحن فيه؟.

ثانياً: تعريف المقابلة

تعتبر المقابلة الصحافية فن اللقاء بشخص بهدف الحصول على معلومات وأنباء أو مواد لمقال وهي «لا تقوم لا لصالح الشخص الذي تجري معه المقابلة ولا لصالح الصحافي وإنَّما لصالح الجمهور أو القراء كمبدأ أخلاقي في مهنة الصحافة»[1].

ليس هناك من قواعد وحدود ومعايير علمية متفق عليها كي يصبح واحدنا مقابلاً ماهراً، وإنَّما تلميحات إلى دراسة القوانين والتوجيهات العامة التي تساعد الصحافيين المبتدئين على تحاشي المزالق، وتركيز الجهد والانتباه إلى المشاكل الأساسية، توخياً للتوصل إلى ما يشابه الحقيقة.

ثالثاً: متى نلجأ إلى فن المقابلة

الملاحظة الأساسية التي يخرج بها الباحث المستعرض للصحافة العربية، وخاصة الأسبوعية منها، هي أنَّ المقابلة مادة صحافية أضحت أساسية في كل وسائل الإعلام. وصارت مادة

---

(١) العميد ريمون إده.

جديدة تضاهي مصدر المعلومات. فأنت تتصفح أية جريدة أو مجلة أو تتابع أية وسيلة إعلامية فتجد فيها مقابلة مع شخص ما وأحياناً مقابلتين أو ثلاث أو أكثر. أما إمكانية تبرير مكان وزمان المقابلة فيبقى أمراً عشوائياً غير قابل للبحث أو الدراية. فلماذا قابلنا هذه الشخصية وليس غيرها، ولماذا نشرنا نص مقابلة في هذا العدد، وليس في غيره، فأمور تبقى الإجابة عليها غير واضحة. المهم في الأمر أنَّ كل عدد لا بدَّ وأن يتضمن مقابلة ما مهما كان الأمر، وهذا هو وجه الخطأ في النظر إلى فن المقابلة في الصحافة العربية.

١ ـ ضوابط المقابلة

بالرغم من أنَّ المقابلة الصحافية شكل شفاهي أو مكتوب يجسد العلاقات بين الشخص والآخر، فإنَّ لها ضوابطها وأصولها على مستوى المهنة، وإلاَّ غدت مادة المقابلة غير صالحة للقراءة. ولو أجرينا دراسة على نسبة القراء الذين يلجأون إلى قراءة نصوص المقابلات من أولها إلى آخرها لوجدناها ضئيلة انتقائية تختار ما يهمها من الأسئلة والأجوبة فتهمل الباقي.

يمكننا اختصار هذه الضوابط:

أ ـ قبل اللجوء إلى مقابلة شخص ما، وإبراز أجوبته وصورته في وسائل الإعلام، يجب التثبت من أنَّ المعلومات التي نود الحصول عليها من خلال مقابلتنا، لا توفرها المصادر

الإخبارية المعروفة، ولا الأرشيف أو مراكز الأبحاث والدراسات والمعلومات، لأنَّ هذه المصادر قد توفر لنا معلومات وأخباراً أكثر ثباتاً من الشخص الذي نقابله.

وفي هذا المجال هناك فرق بين المقابلات التي تشغل صورة الغلاف مثلاً وبين التي تشغل صفحات داخلية، لأنَّ الأولى غالباً ما تكون أقرب إلى الحدث رغم عدم توفر المعلومات اللازمة دوماً.

وفي دراسة أجريتها بالتعاون مع طلاب السنة الرابعة من كلية الإعلام والتوثيق، الجامعة اللبنانية، تبين لنا أنَّ ٧٦ بالمئة من أغلفة مجلات الحوادث والشراع والوطن العربي عام ٢٠٠٤ كانت مواضيع مقابلات، وتشغل صورة الشخص المقابل مساحة الغلاف كله. بينما ٢٤ بالمئة كانت مواضيع متنوعة بينها ٧١ بالمئة أغلفة تشير إلى مقابلات في صفحات المجلة الداخلية ذات طابع اجتماعي أو فني أو اقتصادي وبالاختصار غير سياسي.

وثبت لنا في الدراسة نفسها أنَّ ٨٤ بالمئة من المقابلات التي كانت تتناول شؤوناً عالمية، ومشاكل اجتماعية، ورياضة واقتصاداً وأدباً وشعراً، وتشغل الصفحات الداخلية من دون الإشارة إليها على صفحات الأغلفة الملونة، هي مقابلات لا مبرر زمنياً لها، أي يمكن نشرها في عدد آخر دون أن تفقد أهميتها.

من هنا لا بدَّ من التأكيد على أنَّ المقابلات الفنية مثلاً أضحى لا دور لها سوى تعبئة فراغات وسائل الإعلام، لأنَّ الأسئلة المطروحة من قبل الصحافة أضحت روتينية لا تفي بغرض المقابلة ولا تقدم أي جديد.

وفي مسح للمقابلات التي أجرتها الصحافة اللبنانية عام ١٩٨٢ مع أحد المرشحين لرئاسة الجمهورية في لبنان[١]، تبين أنَّ هناك تشابهاً غير معقول في الأسئلة وخاصة في الأجوبة. والمعلومات التي كانت تقدمها الصحف في هذه المقابلات كنا نجد مجملها مدوناً في الأراشيف أو مراكز المعلومات التابعة للصحف والمجلات العربية.

ب ـ قد تكون المقابلة مع شخصية ما، سياسية على الأخص، مناسبة أساسية للحصول إلى مصادر غنية بالمعلومات، أو المهديات الضرورية للمادة التحريرية، كالوثائق والتقارير التاريخية، وصور الأرشيف الشخصي. ولكن هذا لا يعني أننا يجب أن ننشر ما جاء في لقائنا مع هذه الشخصية. فربَّ وثيقة أرشدتنا إليها الشخصية تكون أهم من النصوص التي تدلي بها هذه الشخصية خلال ساعات، إذن اللجوء للمقابلة يكون غالباً

---

(١) المطبخ في العرف الصحفي هو المكان الذي نطبخ فيه المواد التي يقدمها المحررون، فتصحح وتعنون وتصبح صالحة للنشر. وبشكل أوضح هي غرفة إنتاج المواد الصحفية مضموناً مكرراً وشكلاً جذاباً.

بهدف التزود بمعلومات ووثائق ذات أهمية قصوى.

ج ـ يمكن اللجوء إلى المقابلة للتعرُف والاطلاع على حقائق تختلف بين الأشخاص حول حدث معين أو قضية تثير جدلاً، والهدف يكون بالتالي من أجل تقريب وجهات النظر والبحث عن مكامن الالتقاء والتباين بن الأشخاص.

نتمثل على ذلك بسلسلة اللقاءات والمقابلات التي تجريها الصحف مثلاً بين أطراف الفاعليات السياسية التي يصعب جمعها عملياً، أي الشخصيات والزعماء الذين لا يجمعهم سوى الصراع والصراع بشكله العسكري بالأخص. وهي بهذه المحاولة تقدم للقراءة مادة جديدة شيقة يسأل عنها القراء والمشاهدون وتبرز قدرة الصحافة في خلق الحدث أو إعادة خلقه.

د ـ يمكن اللجوء إلى المقابلة بهدف تعريف القراء على الآراء والاتجاهات والميول العقائدية التي لم ينشر عنها كثيراً من قبل، كأن نقابل مثلاً رئيساً جديداً لحزب عتيق أو جديد، أو شخصية معروفة استجد في مسارها السياسي أو الفني مواقف جديدية، وأمور غير مألوفة.

هـ ـ المقابلة بهدف التعريف بشخصية سياسية أو فنية ناشئة، وهنا تكمن كياسة الصحافة في فن اختيار الشخصية. فليس كل من كتب قصيدة، أو أنشد أغنية أو أنجز «كليَّباً» صار موضوعاً للمقابلة الصحافية، وهذا هو شأن الصحافة

اللبنانية مثلاً. وبهذا المعنى تصبح المقابلة مفتاحاً أساسياً للتعرف إلى مستوى الصحيفة التي تقرأها. **فإذا كان المثل العامي يقول: قل لي من تعاشر أقل لك من أنت، يصح القول في الصحافة: قل لي من تقابل أقل لك من أنت.** لا يجوز أن تتحول وسائل الإعلام إلى سوق رخيص تعرض فيه البضاعة الكاسدة للناس وبرتابةٍ لا تطاق، لأنَّ الناس يعرضون عنك في النهاية.

المقابلة تكون مباشرة بالسعي إلى الشخص الذي نود مقابلته، وغير مباشرة باللجوء إلى وسائط الاتصال الأخرى المعروفة، وهي مادة ضرورية لتوافر النصوص الإعلامية منها ما ينشر ومنها ما لا ينشر، وهنا نركز على النوع الثاني أعني المقابلات التي لا تصلح للنشر، ولا مجال فيها للخجل من الشخص الذي تمت مقابلته، لأنَّ الإحجام في هذا المجال، هو تحريض للارتفاع بمستوى نصوص المقابلات في أجوبتها إلى مستوى الوقت الذي يصرفه القراء، ومستوى الثمن الذي يدفعه الناس بهدف القراءة.

وتكون المقابلة أفضل أو أسوأ المواضيع الصحفية، يعود السبب في ذلك إلى مستوى معلوماتها وطريقة الإعداد لها وتنفيذها. وبغض النظر عن دور المطبخ الصحفي[1] الذي يتناول المادة بعد تقديمها خاماً، فإنَّ الصحافي قد ينجح أو

---

(١) عبدالله عبود، المرجع نفسه.

يفشل في تجميع المعلومات القيمة من الشخصيات التي يحاورها، والفضل في هذا الأمر يعود إلى طريقة الإعداد والتحضير للمقابلة، وسياقها شكلاً ومضموناً...

رابعاً: الإعداد للمقابلة

هناك شعور مميز ينتاب المرء عندما يحضر نفسه لمقابلة شخص ما وخاصة إذا كان اللقاء للمرة الأولى. هذا الشعور هو في الحقيقة مجموعة مشاعر لا يمكن تلمسها إلاَّ بالاطلاع على المشاعر الواعية واللاواعية وهي أرجح في الإفصاح عن الشخصية. فالشعور بالغيرة والحسد والتماهي بالآخر والتفوق على الآخر، ولذة الصراع الخفي بين «الأنا» و«الآخر»، وحسم الصراع القائم بينهما، وسلطة الصحافة ومنها سلطة الصحافي «الوهمية»، ومقابلها حب الذات، وإظهار الذات والنرجسية لدى الآخرين... إلخ كلها أمور أساسية تلعب دوراً كبيراً في تقديم مادة مقابلة ناجحة أو غير ناجحة.

الغريب في الأمر، أنَّ كليات الإعلام في الجامعات العربية ما زالت تهمل جانباً أساسياً في مناهجها وهو مادة علم النفس وعلم النفس التحليلي، وهي أساسية وفي صلب نجاح رجل الإعلام. فالمقابلة بهذا المعنى «ليست حرفاً مطبعياً أو نصاً مكتوباً... إنَّها لحم الصحافي ودمه ومزاجه وعلمه وثقافته، إنَّها مجموعة الشرايين التي تسري فيها الحياة المتجددة مع كل سؤال... لتأتي المقابلات حذرة كالعذراء وسريعة

كالأرنب وبارعة في إصابة الهدف كأحد أفراد العصابات في شيكاغو. . .»[1].

١ ـ يفترض في الإعداد للمقابلة حسن اختيار الشخص الذي يود أن يقترح الصحافي مقابلته أمام مجلس التحرير، ومعرفة الدفاع عن اقتراحه، وأن يبلور في ذهنه الأمور التي يرغب في الحصول عليها بالضبط، وهذا ما يعرف بتحديد بالموضوع. ويمكن الاستعانة بنقاط مدونة لعرض الأغراض الحقيقية للمقابلة والحقائق التي يرغب في كشفها للقراء، وهو أمر أساسي في مقابلة الشخصيات السياسية التي تدلي بتصريحاتها يومياً وتشكل مادة أساسية في مجال مواد وكالات الأبناء المتدفقة إلى مكاتب الصحف. وهذا ما نعني به ربط الشخصية المقترحة بحدث جديد معين. ويجب أن تكون هذه الشخصية فذة. خبيرة، ولها صلاحية وقدرة على الإجابة في مجالها. **والصحافي في هذا المجال قاصد ينابيع أكثر منه قاصداً للسواقي، فأن تقابل رئيساً أفضل من مقابلة ناطق باسمه، وإن تلتقي بزعيم حزب معين من أجل توضيح فكرة معينة، أفضل من اللقاء بعضو عادي في الحزب**. وقد لا يتمكن من نقابله من الإجابة على السؤال الأساسي. فالصحافة تستمد سلطتها في هذا المجال كونها تدخل من الأبواب العريضة، ومن هنا تراتبية الصحف من حيث فاعليتها وجمهورها.

---

(١) Hall, Edward. المرجع نفسه، ص: ١٩٥.

٢ ـ معرفة الشخصية أمر ضروري قبل لقاء الصحافي به. إذ يجب الحصول على المعلومات العامة التي تساعد الصحافي في أثناء إجراء المقابلة بفتح بعض الثغرات في الجدران التي يقيمها غالباً أصحاب الشهرة والسياسيون مع الآخرين. وهي ثغرات تساعد إيجاباً في خلق مدى من الارتياح بين الصحافي والشخصية. فمعرفة عمر المقابل، جنسه بالطبع، جنسيته، مستواه العلمي والاقتصادي، ارتباطاته السابقة والحالية السياسية والاجتماعية، وضعه العائلي، هواياته المحببة في الحياة، كلها أمور أساسية في فن اللقاء.

هذه الأمور وأخرى مختلفة تشكل بحد ذاتها بحثاً لتبيان أسس نجاح المقابلة، هذا إذا ما أخذنا في عين الاعتبار أنَّ العاملين في مجال السياسة، ينتشون إذ ينقلهم محدثهم، وبشكل لبق، من عالم السياسة الرتيب إلى عوالم أكثر بساطة تثير الارتياح لديه. إنَّ طائر الديلم مثلاً وهو ذكر من الحمام البري كان يشكل محطة ارتياح لدى ريمون إده، وهو يعزف عن السياسة ويرتاح إلى محدثه إذا شعر أنَّ هذا قادر على مجاراته بجديد وجديَّة في الموضوع.

كيف يكون موقف صحافي يقف موقفاً هجومياً من المقاومة أو من فصيل فلسطيني مثلاً إذا عرف في ما بعد أنَّ محدثه من أصل فلسطيني أو مقاوم، أو أن يستعرض قراءاته العلمية المعقدة في اختراع جديد معقد في حضرة سياسي غير متعلم، أو كأن ينظر في الصراع الطبقي وديكتاتورية البروليتاريا

والعولمة أمام سياسي رأسمالي بالفطرة والممارسة، أو أن يشكو صاحب عاهة التقاه في الطريق ولدى السياسي ولد مصاب بالعاهة ذاتها، أو أن يتكلم في حلاوة الأطفال أمام سياسي هرم عقيم لم ينجب الأطفال، أو أن يتكلم في نشاطات وهويات لا تثير إلاَّ النفور والاشمئزاز في نفس الرجل الذي سيقابل؟.

هذه الأمور كلها لا يمكن معرفتها إلاَّ بتكوين معلومات عامة تعرفه بالشخصية التي يقابلها، وذلك عن طريق الأرشيف والأسئلة الاستفسارية لمن هم أكثر منه خبرة وأكبر سناً ومعرفة.

هذه المعلومات التفصيلية التي لا بدَّ من التعرف إليها قبل الشروع بالمقابلة تعتبر مفاتيح ذهبية تساعد في التقريب بين شخصين وتتخطى هذه المعلومات التفصيلية حدود العلاقة بين شخصين لتأخذ مداها الأرحب في إعادة العلاقات بين شعبين أو بلدين عبر ممثلها. ويذكر أنَّ الرئيس الأميركي جيمي كارتر كان قد أوعز إلى أجهزته ومراكز أبحاثه التابعة للبيت الأبيض بأن تقدم له تقريراً مفصلاً حول شخصية الرئيس المصري أنور السادات بعد زيارته إلى القدس وقبل مقابلته من أجل توقيع اتفاق كامب دايفيد، وكذلك الأمر بالنسبة لمناحيم بيغن. وكان الملف يتناول معلومات دقيقة مفصلة تكشف جوانب أساسية وغامضة من شخصية السادات ساعدت الرئيس الأميركي في التقرب بسهولة من هدفه المتوخي. وإذا كانت بلدان أوروبا الغربية كلها لا تحظى سوى بمفتاح واحد لإلقاء التحية بين الأفراد أعني به السؤال عن حال الطقس، فالفرنسي يخاطب

الآخر بقوله الطقس جميل أو سيء فقط لشروع بالأحاديث، وينتهي الأمر، فإنَّ في بلادنا أكثر من مفتاح لإقامة العلاقات بدءاً بالطقس وصولاً إلى هواية جمع المسابح والصور القديمة والقضايا الكثيرة التي تجمع الناس. وإذا كانت الفردانية عنوان المجتمع الأوروبي، فإنَّ الاجتماعية أو الجمعية عنوان المجتمعات العربية، وهذه أمور تسهل مهمة الصحافي في مجتمعات الشمس والماء، أو إنَّها تسهل العلاقة، بالأحرى، بين شخصين. من هنا نفهم مثلاً أنَّ مهنة العلاقات العامة الضرورية للتكامل مع مهنة الصحافة أخذت ولادتها في الغرب الصناعي، وصار هم هذه المهنة البحث عن اجتماعية الإنسان في فردانيته. وسلخ الألينات التي تولدها العجلة الصناعية عن طريق إعادة الإنسان إلى نقائه الأول. إنَّها محاولة الجمع بين الفطرة الاجتماعية والوحدانية أو الفردانية المكتسبة.

ولو نظرنا عميقاً للمقارنة بين مجتمع صناعي وآخر استهلاكي مشرقي مثلاً، لاكتشفنا فارقاً كبيراً في المفاهيم في هذا المجال وأكثر في مجال الأسوياء والمرضى النفسيين. فاللقاءات بين الناس هي مجال تنفيس عن رغبات مكبوتة بشكل لا واعي، ومن هنا جاء التحليل النفسي وعلم النفس العيادي والعيادة النفسية، كما ذكرنا، مظاهر تعكس فردية المجتمع الصناعي. ومن هنا يصبح عالم النفس التحليلي عاطلاً عن المباشرة في العمل أو العمل في مجتمع مثل مجتمعاتنا قائمة على العلاقات التنفيسية حيث ما زالت القبيلة والعائلة والعشيرة هي السيد والمجال للتعبير عن الذات.

ولو ذهبنا أكثر من ذلك لقلنا إنَّ الهندسة العمرانية في حد ذاتها، تساهم في التعبير عن أحوال الشعوب، وتفترق عربياً مثلاً عن الظاهرة العمرانية الجاهزة التي تستدعي أو تنتج الاكتظاظ السكاني في العالم الصناعي: «يتجنب العرب الحواجز في منازلهم لأنَّهم لا يريدون البقاء وحدهم. إنَّ هيكلية البيت العربي تقوم على المساحة الوحيدة الحاضنة لأفراد العائلة المشدودين عصبياً إلى بعضهم البعض، شخصياتهم تتفاعل إلى حد الذوبان وتتغذى من بعضها كالجذور في التربية... وهذا ما نقرأه في مثل عربي يقول: الجنة بلا ناس ما بتنداس...»[(١)].

الاتصالية جزء من التربية العربية، إذن، والطفل يتعلم الاتصال بالفطرة وخاصة في المساحة التي يتحرك فيها الجسد العربي. فالاتصال أساس الحياة. ومن يقطن في الدور الخامس يلتقي بجيرانه في الطوابق الأربعة مثلاً، يحادثهم، يتصل بهم قبل وصوله إلى منزله. الناس في الشرق يتكومون أمام الأبواب المشرعة دوماً، فوق الأدراج والشرفات. وهذا ما يفرق المجتمع العربي عن الغربي[(٢)].

---

(١) راجع من أجل مزيد من التفصيل:

May Gebran, la situation conflictuelle de la Femme libanaise, Thèse de doctorat, Paris VII, 1980.

(٢) راجع في هذه الموضوع:

La presse et l'événement d'études de presse, Travaux et

يكفي القول أنَّ معرفة الآخر أمر ضروري يتم عن طريق معلومات الأرشيف والأشخاص. وهناك علم قائم على دراسة أشكال الوجوه للتعرف إلى شخصيات الناس دون رؤيتها. وقد برع فيه عالم النفس الفرنسي لويس كورمان Louis Corman الذي حاول التعرف على نفسيات الآخرين عن طريق دراسة ملامح وجوههم في الصور الفوتوغرافية. وآخر دراسة لم تنشر له كانت حول شخصية الممثل الجزائري روبرت حسين ودراسات أخرى حول التاريخ اللبناني عبر دراسة ملامح وجوه الزعماء السياسيين والرؤساء في لبنان.

هذا العلم ليس بعيداً عن علم الفراسة الذي اختص به العرب الأقدمون. شكل الجمجمة، شكل الوجه، الفك والعيون، وتحليل سمات تجاعيد الوجه، وحجم الأنف والفم، وكثافة الشعر... إلخ.

إلى أي مدى يمكن الوثوق بهذه الأنواع من العلوم لإجراء مقابلة ناجحة؟.

أمر لا يمكن الإجابة عليه بهذه البساطة لأنَّها علوم قد تؤثر سلباً، وتصبح الأحكام على الآخر أقوى من الآخر. إضافة إلى دور الصورة التي هي المفتاح الأساسي في دراسة الشخصية التي غالباً ما تخدع من حيث تقنياتها والزاوية أو الزوايا التي

---

recherches de Centre Mouton - Paris - Lahay, sous le direction d'Andre Tudesq, 1973, p. 116-136.

التقطت منها، ومن حيث نوعيتها ملونة أم أبيض وأسود. وهذه تحتاج إلى دراسة مستقلة كونها قضية محض نفسية تحتاج إلى قدرات عالية في الوصول إلى أحكام ونتائج.

٣ ـ تحديد وقت صالح لإجراء مقابلة. وتحت هذه النقطة تندرج أمور لا بدَّ من مراعاتها في تحديد الموعد من حيث الاتصال المباشر أو غير المباشر. ويجب أن يتم الاتصال إبان الأوقات المناسبة وهذا أمر يختلف من شخص لآخر. فهناك السياسي الذي ينطلق من منزله باكراً، وآخر لا يستيقظ قبل العاشرة صباحاً، وثالث ينام طيلة فترة ما بعد الغداء. لكل إنسان أوقات يرغب في أن تقطع رتابته في خلالها من قبل الآخر عن طريق هاتف أو اتصال بالواسطة أو رسالة إلكترونية أو فاكس أو بريد إلكتروني أو غير ذلك. باختصار يجب معرفة الوقت الذي تقتحم فيه الشخصية لتنال موعداً خاصاً بك. وتلعب طريقة التحدث والتوجه إلى الآخر عن طريق الهاتف أو عبرة دوراً أساسياً في تحديد الموعد أو عدمه. فالأفضل عدم السؤال أبداً مثلاً: من يتكلم على الخط الآخر، يجب التعريف بنفسك أولاً وباسم المؤسسة التي تمثلها وبصوت واضح لا هو عال فيزعج أو منخفض فلا يسمع. وبعد ذلك تشرح باختصار كلي الهدف المطلوب من المقابلة. وهنا تكمن الأهمية في قدرتك على إثارة السامع وإقناعه بمقابلتك أو اعتذاره بلطف أو غير ذلك.

أمَّا الاتصال الخطي أو الألكتروني، فقد يكون وسيلة

ناجحة في تحديد المواعيد، إذا كان الأمر غير ملح. فلحظة استقبال البريد والاطلاع عليه تعتبر زمن نشوة وارتياح عند كثيرين من مدراء المؤسسات والشركات من كبار المسؤولين. إنَّها اللحظة التي يتحاور فيها المسؤول مع العالم خطياً وهو قابع خلف طاولته، وهي اللحظة التي تتحرك فيها: «أناه» و«مخيلته» من نقطة لأخرى، ومن ملامح وجه مرتسم في الذاكرة إلى وجه آخر (وحول فنجان القهوة). إنَّها لحظة مريحة مجال الرفض فيها ضئيل، على الأقل من حيث قراءة الرسالة، أو سؤال المساعدة السكرتيرة عن فحواها. في هذه اللحظة تدخل بنصك بارتياح وتقدم طلبك بارتياح أيضاً، لأنَّ الهاتف قد يكون وسيلة أسهل لرفض التكلم مع الآخر على الطرف الآخر من الخط، بسبب المشاغل المتراكمة وكثرة الزائرين وعقد الاجتماعات والاتصالات المكثفة في لحظة واحدة ومن بينها اتصال الصحافي لتحديد موعد. اختيار وسيلة الاتصال لتحديد موعد مقرونة إذاً بمدى أهمية المقابلة بالنسبة للطرفين، وبأهمية سرعتها من جانب آخر، وبمدى أهمية الشخص المراد مقابلته. ففي أوروبا تتم، مثلاً، مجمل الاتصالات عبر الرسالة المكتوبة. وهذا كله لا ينفي الأهمية الكبرى لفاعلية الصوت المباشر في تحديد المواعيد. وتبقى هذه الأمور نسبية وفقاً للحالة ولن تشكل قاعدة أو قواعد في فن تحديد المواعيد.

لا نفهم، إذا كان الصحافي مصمماً على مقابلة شخصية ما الوصول إلى اليأس في حال رفض الآخر للمقابلة.

فالصحافي اللبناني الوسيم رغيد الشماع مثلاً بقي يطارد الممثلة الفرنسية سلفيا كريستل عاماً كاملاً وشهرين عن طريق الاتصالات المباشرة والخطية بهدف تحديد موعد لمقابلتها كي تنشر في مجلة «المستقبل» في باريس. وكان الجواب الرفض الدائم.

بعد انتظار وإلحاح جاء الجواب بالموافقة وذهب إلى الموعد بدقة وكياسة، وبعدما استقبلته ووضع أوراقه وماكينة التسجيل أمامه على الطاولة بادرته كريستل بعصبية: لديك خمس دقائق فقط لطرح أسئلتك. فرتب أوراقه ونهض بعصبية معتذراً لها بلكنة فرنسية: انتظرت أكثر من عام لإجراء مقابلتي معك، ولست مستعداً الآن أن أطرح ما عندي في هذا الوقت القصير. وعندما همَّ بالانصراف استدعت مدير مكتبها طالبة إلغاء مواعيدها لهذا النهار. وقالت للشماع: لك ما تشاء من الوقت. وانتهت أجمل مقابلة فنية مزودة بالصورة الكثيرة بعلاقة عاطفية بين الاثنين سافرا معاً إلى ميامي للاستجمام. وكانت المقابلة سبقاً صحفياً في مجال المقابلات الفنية.

٤ ـ لا بدَّ للصحافي في أثناء إعداده للمقابلة من وضع نفسه مكان الشخص الذي يقابله. يتخيل ما هي الأفكار التي يكونها عنه، عن تسلسله ومنهجه في عرض أسئلته، عن مفرداته وطريقة انتقائها، وطريقة تحررها من مخارجه الصوتية. كما لا بدَّ له من الثقة بنفسه وبالقضايا التي يطرحها، لأنَّ الناس وخاصة السياسيين منهم لا يميلون إلى إنفاق أوقاتهم في الإجابات عن أمور بديهية.

وهي أحياناً توحي بأنَّ الصحافي إنسان جامد غير ديناميكي؛ وهذا ما يحصل غالباً عندما تكون المقابلة خاضعة لأسئلة مدونة سلفاً من قبل رئيس التحرير أو هيئة التحرير، ويتحول دور الصحافي إلى حامل ورقة يقرأ عنها سؤال إثر آخر أو حامل مسجّلة، وهي قد تكون أردأ أنواع المقابلات.

هناك نقطة أساسية في هذه المرحلة، وهي تصفية الصحافي لمواقفه المسبقة من الشخصية موضوع المقابلة. وهذا الكلام ينسحب بالطبع على الصحافيين الذين يتخذون الصحافة مهنة لهم. وهنا نفتح بين قوسين جملة معترضة، قد تكون مادة لبحث طويل وهي: دراسة الإسقاطات في النصوص الإعلامية العربية ـ التعليقات و/أو افتتاحيات الصحف مثلاً. والإسقاط الذي يأتي قبل وأثناء الكتابة أمر قد يجد تبريره في الصحافة الحزبية الملتزمة[1]، ولكنه لا يبرر بشكل عام.

لا يعني، هذا الكلام لا يعني أنَّه يمكننا أن نفحص تحيزاتنا ومواقفنا مسبقاً، ونتخلى عنها في أثناء الكتابة، لأنَّ الإسقاط الواعي لو أزيح، فهو لا ينفي الإسقاطات اللاواعية[2] التي تشكل في دراسة النصوص مفتاحاً أساسياً لفهم المضامين

(١) من أجل مزيد من التفاصيل:
Marie - Christine D'unrug, Analyse de Contenu, Paris, Editions Universitaires, 1974.

(٢) في .Flahault. F.

اللامقالة في نص مقال. وهذا ما يشار إليه باللغة الصحافية العامية بالتلميحات و«القفشات» الصحافية من دون فهم علمي للمقصود.

٥ ـ المرحلة الأخيرة في الإعداد للمقابلة تقتضي الوصول إلى صياغة الأسئلة وبلورتها وكيفية تراتبيتها كمحاور في الأساس. والأسئلة قد تكون عامة ذات صفات تمهيدية، أو نوعية مباشرة. وهنا لا بدَّ للصحافي من الإلمام بالموقع الذي تتركه صيغة سؤال ما في ذهن السامع، وكيفية اختلاف هذا مع الواقع أو الانطباع سلباً أو إيجاباً وفقاً للصيغة المقترحة. كما تتطلب الإلمام بالأصول التي تراعى في سياق الأسئلة ومدى ترابطها ببعضهما البعض وشبه المعرفة المسبقة للجواب. هذا الإلمام لا يتوفر من دون قدرة ذات طابع نفسي عيادي وثقافة وخبرة عالية في التعامل مع الآخرين.

في تسلسل الأسئلة وربطها يشير «دوكرو» إلى أنَّه «في دينامية الخطاب أو الحوار، يتم تسلسل المعلومات بدءاً من الموقع والمعلوم، وتترك جانباً الافتراضات. ويؤمن تقدم الخطاب بفضل المضامين المطروحة المختلفة، بينما تتكفل استمرارية عملية فهم المضامين المطروحة المعلومة في إطار افتراضي... ويظهر دور الافتراض جلياً في مجال الحوار وكحتمية خاصة في جدلية السؤال والجواب...»[1].

---

(١) المرجع نفسه، ص: ١١٣.

خامساً: الهالة في المقابلة

هناك ما يسمى بـ «الهالة» عند التقاء اثنين ولها دورها في فترة التعارف، والانطباع العام الذي يكوّنه الواحد عن الآخر مما قد يؤثر سلباً أو إيجاباً على مسار ونتائج المقابلة.

١ ـ في الدرجة الأولى هناك خصائص الصوت في لقاء اثنين. فقد يحكم على الصوت الأنثوي مثلاً بأنَّه ممتاز وجميل، ولكنه يثير السخرية إذا صدر عن رجل قوي البنية. وهناك خاصية الوضوح في الصوت الذي يأتي متلعثماً أحياناً ومشوباً بالغموض والتلبك أحياناً أخرى، يجعل السامع يطلب إعادة ما سمعه، لعدم فهمه أو سماعه. الحقيقة أنَّ السامع التقط أصواتاً، لكنه لم يصغِ **وشتان ما بين السماع والإصغاء**. فالوضوح في الصوت وضوح في الشخصية، والتأنق في إخراج الحروف من مخارجها الصوتية لا يعني التفخيم ولا التمنطق في التوجه اللغوي إلى الآخر. نكتفي بالتلميح إلى الأصوات الخجولة المتأتأة التي قد تكون دليل أمراض نفسية جنسية في علم النفس التحليلي، ويقابلها الأصوات الواضحة لا العالية دليل الصحة الجنسية والفحولة[١].

٢ ـ يؤثر الهندام المناسب لا في الشخص الذي نقابله فقط، بل يمنح صاحبه بعض الثقة في النفس. لهذا السبب لا

---

(١) رولان بارت، المرجع نفسه.

بدَّ من إعطاء بعض الوقت لاختيار الهندام قبل الذهاب إلى مقابلة الشخص. والهندام يتم اختياره وفقاً للظروف ولنوعية الشخص الذي نقابل. في هذا المجال يمكن اختيار اللباس الذي يوفق بين الأناقة المموضة وراحة الجسد داخل اللباس والألوان المقبولة لمختلف المناسبات، بحيث أنَّ حلة الصحافي لا تأتي متعالية أو دونية في المظهر بالقياس إلى الشخص الذي نسعى لمقابلته. لا تستحب الألوان الصارخة والماكياج الكثيف أو لبس الحداد في لقاء صحفي سريع، فاللباس من وسائل الاتصال الأساسية.

الهدف من هذا الموضوع إيجاد نقاط تجمع في ما بين الشخصين من حيث انطباعهما العام. لا نقاط تجمع الشخصين من حيث انطباعهما العام، لا نقاط تباين وتنافر تحد من نجاح المقابلة والإحجام عن الإدلاء بالمعلومات بفعل حالة الصد النفسي التي يصاب بها المرء.

وتوضيحاً نشير هنا إلى إحدى الصحفيات العاملات في قناة التلفزيون الرسمي اللبناني، وكانت تبث تحقيقاً عن المهجرين في لبنان، وظهرت على الشاشة الصغيرة تلبس معطفاً من الجلد الأنيق الغالي الثمن، وبتسريحة شعر مبتكرة جداً، ومجموعة من الخواتم والأساور الثمينة... إلخ. أطلّت على المشاهدين تنزل السلم إلى قبو عتيق رطب لتقابل مهجراً هرماً يقتعد زاوية من القبو، وبين أصابعه لفافة تبغ يعلكها أو كأنَّه يدخنها بمرارة وقهر، ذقن مرتخية، فقر واضح. سألته سؤالاً

عن أوضاعه: مبسوط هون؟ سمعها نظر إليها. لم يصغِ. وكان جوابه أن هز رأسه فقط. وانتهت المقابلة. صمت الرجل ولم يعد يتكلم.

مثال آخر للصحافي الذي كان في أناقته الكاملة يغطي مظاهرة احتجاج لعمال أحد المصانع وهم في حالة هياج. ولدى اقترابه من المتظاهرين كان قد طرح أرضاً إذ تصور اللذين ضربوه من المضربين المتظاهرين أنَّه ابن صاحب العمل أو رجل مخابرات غريب يندس في صفوفهم.

باختصار كلي يمكن الاستعانة بالقول: «لكل مقام مقال ولكلّ مقابلة هندام وسلوك». «واللباس اتصال بالعالم يساهم في تقريب الحضور بين الناس أو تعزيز النفور بينهم»[1].

٣ ـ احترام وقت المقابلة أو احترام دقة الموعد، وهو أمر في أساس إنجاح المقابلة. وغالباً ما يسبب الوصول المبكر أو المتأخر عن الموعد إحراجاً للصحافي يورثه تشويشاً وضعفاً تجاه الآخر. وهناك عرف أصبح عالمياً في هذا المجال، إذ يحق للشخصية التي يسعى الصحافي لمقابلتها بأن يتأخر في استقباله فترة لا يجوز أن تتخطى الخمسة عشر دقيقة، وفي الحالات الاستثنائية يخرج معتذراً لمزيد من الوقت وتبرير سبب تأخره في عدم الاستقبال، وإلاً فللصحافي الحق الكامل في

(١) Wesenfelder. Ralf. 50 trucs pour réussir une réunion, Paris, les éditions d'organisation. 1982. p. 63.

الانصراف مهما كان الثمن أو النتيجة وهذه ليست قاعدة نهائية.

ومن المستحسن أن يصل الصحافي قبل موعده المحدد بدقائق عدة ولا يهمل قضاء حاجته قبل الوصول إلاَّ إذا كان واثقاً بأنَّه يستطيع التماسك حتى انتهاء المقابلة. كما يستحسن أن يحتفظ أدويةِ للصداع في جيبه انتهاء أو حقيبته، إذ قد يفاجئه ألم الرأس وهو في الطريق إلى المقابلة أو عند الوصول، فيضيع وقته ولا يتمكن من القيام بمهمته على الشكل الأمثل.

يحرج الصحافي إن نسي فوطة يضعها في جيبه، وخاصة إن كان مصاباً بالزكام مثلاً، وعليه أن يخفف من الكلام عن زكامه أو مرضه، ولا يضع الفوط التي يستعملها في المنفضة على مكتب من يقابله، فكل هذه التفاصيل الصغيرة تخلق نفوراً لدى الآخر وميلاً في اختصار الوقت المخصص للمقابلة.

الأخصائيون في فن المقابلة، غالباً ما يتصفون بسرعة الملاحظة والذكاء إذ يشرعون في مواضيع تهم السامع ومحببة لديه، ومن صلب اهتماماته، وكلها تشكل جسوراً إيجابية تساهم في تقريب الناس إلى بعضهم البعض، وتخلق جواً من الثقة المتبادلة التي تدفع الناس إلى الكلام.

٤ ـ تعبيرات الوجه والسلوك العام وهي توحي بشخصية الصحافي، وتأتي في رأس قائمة هذه التعبيرات أهمية النظر. فالعين «سراج الجسد» وقد تكون مفتاح النفس الأساسي. والاستعانة بالنظر قد يساهم في منح الصحافي ثقة بالنفس

كبيرة. فالتحديق في أعماق من تقابله يجب ألا تخيفه، بل قد تزوده بقوة وتفوق خفي على من يشعر سلفاً بأنَّه في مركز القوة ومتفوق عليه. فالفكرة التي تأتي مثلاً منطقية لكنها مصحوبة بنظرات حائرة أو مسمرة على شيء فوق الطاولة أو على الجدار تبدو ضعيفة في قوة منطقها، بينما فكرة أخرى أقل إقناعاً ولكنها تأتي مصحوبة بنظرات نافذة محدقة في عيني محدثك، ومعبر عنها بجدية ورصانة تبدو مقبولة بسهولة أكثر.

بهذا المعنى، يستحسن تجنب النظارتين السوداوين من دون علة، وخاصة في فصل الشتاء، والتي غالباً ما يضعها الصحافيون بهدف فرض الهيبة، بينما الأفضل لفت الأنظار إلى العينين لأنَّهما أصدق في التعبير وأقوى: «انظر لي حتى أراك وأسمعك».

«تقوم الطريقة الأفضل في لفت الانتباه على تثبيت النظر في عيني محدثك، إذا لم تكفه جاذبية عينيك، يمكن أن تصطحب نظراتك بمناداته باسمه أو بأكثر صفاته المحببة لديه... من العبث أن تتابع حديثك مع شخصية تنظر إلى ناحية أخرى أو تقرأ وثيقة ما بين يديها. حتى ولو خاطبك محدثك قائلاً: تابع. إني أصغي إليك... فلا تصدقه، لأنَّه يسمعك ولكنه لا يصغي إلى ما تقول...»[1].

وتبدو هذه الأمور أشد أهمية عندما نلاحظ أنَّها تصبح من

---

(١) المرجع نفسه.

صلب سلوك شخصيات السياسيين وخصائصهم ورجال الدبلوماسية والممثلين والفنانين الكبار بوجه عام. وهي أمور يدركها تماماً المتمرسون في التعاطي مع الناس وخاصة في مجال العمل الصحافي. **فعندما يجيب الدبلوماسي بنعم مثلاً، نفهم من جوابه: ممكن، وإذا أجاب ممكن نفهم: لا. وإذا أجاب بصراحة: لا، فيفقد شيئاً من دبلوماسيته وهذا على عكس ردة فعل الأنثى التي إن قالت لا فيجب أن نفهم ممكن وإذا قالت ممكن فهذا يعني نعم وهي تبطل أن تكون أنثى إن قالت نعم.**

وقت المقابلة هو أساساً مخصص لصالح الشخص الذي نسعى إليه للحصول على الحقائق والمعلومات، وفي الدرجة الثانية لصالح الصحافي من هنا «لا يستحسن أن ينظر الصحافي إلى ساعة يده في أثناء إجراء المقابلة مع شخصية سياسية أو فنية أو غيرها...»[١].

٥ ـ لغة المخاطبة أو التخاطب ولها دورها أيضاً في إنجاح المقابلة. وأفضل لغات التخاطب هي اللغة المشتركة المباشرة ومعرفتها، والسؤال ببساطة كلية بلهجة بعيدة عن الاتهام ولهجة الامتحان. وغالباً ما تخون اللغة صاحبها في القدرة على التعبير، فتأتي لغة المخاطبة بالأيدي والأصابع لدعم الحجة والصوت.

---

(١) المرجع نفسه.

إنَّ لغة التخاطب بالأصابع وتقويس الحواجب قد تكون أقرب إلى الشرقيين عموماً، لكنها لا تبرز في سلبياتها إلاَّ إذ كان واحدنا يجري مقابلة مع شخصية غربية عن تراثنا وتقاليدنا. الأرجح أنَّها لغة تنم عن ضعف في الخطاب الذي يستعمله واحدنا.

هذه الإيماءات اللاشعورية هي مراكز أساسية يتكىء عليها المشاهير إبان مقابلاتهم للتعويض عن إحراج وتلبك داخلي تغطيه حركات الأصابع والعيون، فاللعب بعلاقة مفاتيح أو سلسلة فضية أو اللجوء إلى التدخين أو حكّ الرأس (مثل النائب وليد جنبلاط) كلها تعتبر تفاصيل أو عكازات تثير أسئلة ناجحة يتوخاها الصحافي، عبر إعطاء المُقَابَل مزيداً من الوقت المسروق تهذيباً لاستمرارية المقابلة وكيفية متابعة الحوار المتكافىء. و«الإيماءات المصحوبة بأصوات عالية تحد من الإصغاء، والدفاع الهادىء أبلغ من الهجوم في مجال الاتصال والإيصال...»[1].

أما النظر وأشكال الاتصال الحسي فمختلفة باختلاف الشعوب. إنَّها جزء من ثقافة الشعب بمعنى Culture. فالاتصال بين العربي والغربي يختلف عنه بين عربي وعربي مثلاً. يقول إدوارد هال في هذا المجال: يتم الاتصال لدى العرب وفقاً لنمط أوسع من النمط الأوروبي الشمالي مثلاً، لا على مستوى

---

(١) Hall, Edward. T. المرجع نفسه، ص: ١٩٤ ـ ١٩٨.

الضجة العربية الأعنف من حيث الحضور، وإنَّما من حيث النظر الثاقب لدى العرب، واستعمال الأيدي، والاتصال الحسي الحار والرطب عن طريق أنفاسهم (لهاثهم) في أثناء المحادثة، كلها تشكل مساهمة حسية قد لا يتحمل الأوروبيون عنفها.. ويتبادل العرب النظرات بشكل يبدو مثلاً وقحاً أو مثيراً بالنسبة للأميركي.. والحقيقة أنَّه عندما يتكلم العرب، فإنَّما يثبتون نظراتهم بشكل يحرج مجمل الأميركيين كثيراً[1]...

مهما كانت خلفية هذا الكلام، فإننا لن نغفل هذه الإيماءات البسيطة والهفوات التي شكلت بالإضافة إلى الحلم مادة المحاضرات التي ألقاها فرويد عام ١٩١٦، وجمعت في كتاب «مدخل إلى علم النفس التحليلي».

يريد فرويد[2] أنَّ الأفعال الناقصة les actes manqués تتم عندما يتلفظ شخص أو يكتب، مدركاً أم لا، كلمة غير تلك التي يود قولها أو كتابتها (الزلة Lapus)، أو يقرأ بشكل مختلف ومغاير للكلمة المطبوعة أو المخطوطة المراد قراءتها (القراءة المغلوطة La fausse lecture)، أو أنَّه يسمع غير ما يقال له (السماع المغلوط La fausse audition)، إلى العوامل المتعلقة بالنسيان L'oubli وفقدان الأشياء والأشخاص La perte). هذه الأفعال الناقصة المعبر عنها بشكل عفوي تساعد في فهم الآخر

---

(١) Freud. S. المرجع نفسه، ص: ١٥.

(٢) Le Rebuffade, Communications, n° 20, 1973.

والتعرف على مواقعه وتفسير الباطن أو الغامض منها.

سادساً: تفاعل الأنا والآخر

المصافحة أولاً هي اعتراف بالفروقات والمماثلة بين اثنين، حتى التجاهل أحياناً هو شكل من أشكال الاعتراف بحد ذاته: «أنت حر غيري، وأن أعرفك هذا يعني أن أصحافك. نحن متشابهان كوننا نتبادل اعتراف متبادل بيننا. وإذ تصافحني أنت، فإنَّك تعترف بوجودي الكامل كآخر، كما أعترف بك آخراً خارج أناي أنا، فأجيب السلام»[1].

ومقابل الصحافة، هناك الصد أو سوء الاستقبال الذي يفترض رفض الاستجابة للمتطلبات التي تتضمنها المصافحة، «والصد ظلم حقيقي في العلاقة بين اثنين»[2].

المصافحة والصد في بُعدها ما بعد الحسي، أي في أنماط جدلية التفاعل بين اثنين، يقدمان أنماطاً أربعة من الناس:

١ ـ النمط الأول وهو الذي لا يدع الصحافي يتكلم، بل

---

(١) المرجع نفسه، ص: ٢٤٠ ـ ٢٤١، هذه الأفكار حول المصافحة والكف عنها، ليست بعيدة عما طرحه التوسير حول التحقيق في دراسة بعنوان:

Idéologie et appareils idéologiques d'Etat, Althuser, in: la pensée, no 151, Juin, 1970, p. 30 - 32.

(٢) عبدالله عبود، المرجع نفسه.

يشرع هو في الحديث في موضوعات قد تكون مهمة بالنسبة إليه، وقد اعتاد تردادها، لكنها لا تهم الصحافي أبداً نسبة للغرض الذي يسعى إليه.

٢ ـ النمط الاستطرادي الذي يتيح للصحافي التحدث قليلاً أو طرح أسئلته قبل الإجابة عنها، ثم يقتحم الحديث ويكلمه على طريقته ولا يقبل بمقاطعته بعد ذلك.

هذان النمطان يحتلان قطاع السياسيين المحنكّين الذين يفترضون سلفاً أنَّهم يعرفون تماماً الغرض الحقيقي من المقابلة، ومن المعلومات التي نسعى إليها. ولهذا فلذتهم القصوى أن يطلبوا منك الصمت للتدوين أو التسجيل فيفرغ ما عنده، وتنتهي المقابلة باستقبال زائر ما، فيبتسم ابتسامة النصر الصفراء ويودعك عند الباب. مع هذين النمطين، غالباً ما نستغني عن أسئلتنا لدى مواجهتنا للشخصية.

٣ ـ النمط الذي يسير في المقابلة حتى النهاية، لكنه يهرب في أجوبة فرعية جانبية تبعدنا عما نصبو إليه.

٤ ـ النمط الذي يجيب عن أسئلتنا بدرجة كبيرة من الثقة والتحديد وهي أسهل أنواع المقابلات: مقابلة الناشئين. طبعاً، هناك نمط آخر لا يميل إلى الشرح فيكتفي بالإجابة بنعم أو لا وتنتهي المقابلة الصعبة في غضون دقائق عدة.

هذه الأنماط خاضعة في استجابتها وتفاعلاتها مع الصحافي إلى أمور لا تحصى، لها علاقة بالشخصية والأمزجة

والطبائع وزمن المقابلة ومكانها ومشاغل الحياة... إلخ. كما أنَّها خاضعة إلى حضور الصحافي بشتَّى أبعاده الإنسانية والمهنية.

نجد بهذا المعنى الشخص الذي يتلافى إظهار الحقائق، أو الراغب في إفشائها، لكنه يعجز مفتقداً الفهم الواضع للمطلوب منه، أو يبدو غير قادر على نقل المعلومات التي يريد الإدلاء بها بدقة وأمانة كاملة، أو يكون أحادي البُعد لا يريد الوصول إلى الحقائق.

وإنَّ تجنب هذه النتائج السلبية تبرز قدرة الصحافي وبراعته في تغيير اتجاه من يقابله، إذ تكمن الأهمية في اكتساب ثقة الشخصية في أنَّ ما سيدلي به، لن يستخدم في غير صالحه، وبأنَّ السعي إليه هو بهدف تقديم خدمة فعلية له. والثقة تتقدم في أهميتها فتصبح في صلب أخلاقيات العمل الصحافي. «فليس كل ما يعرف يقال» والعكس هو الأمر الذي ما زال سائداً في أجواء الصحافة العربية، لهذا تتصف العلاقة بين الصحافة والسياسة بقسط كبير من الحذر وقلة المصداقية.

مثال حي على هذا الموضوع أستمده من تجربتي الشخصية في الصحافة، إذ شاءت الظروف أن أكون من مؤسسي اتحاد الصحافيين العرب في باريس وكنت أعمل آنذاك في «مطبخ» مجلة «المستقبل». يومها كان جان فرنسوا بونسيه وزيراً لخارجية فرنسا وشاء أن يقيم علاقة «مميزة» «راقية» مع الصحافة

العربية في فرنسا. دعانا في المرة الأولى إلى الفطور ليخبرنا أنَّه يود اللقاء بنا للتداول بحرية كاملة في كل الشؤون والشجون التي تهم فرنسا والعالم العربي، وإن لقاءنا به سيكون دورياً تكشف فيه الحقائق من دون مواربة، ولكن ليس كل ما يقال في الجلسة صالح للنشر.

الجلسة الثانية جاءت صباحية. وأذكر أنَّه حضر إلى الجلسة الوزير السابق مروان حمادة، قبل أن يصبح وزيراً، ممثلاً للنهار العربي والدولي، د. نبيل المغربي عن مجلة الوطن العربي، أمين المعلوف عن مجلة جون أفريك، وفيق الطيبي رئيس اتحاد الصحفيين العرب في باريس، وكاتب هذا البحث ممثلاً لمجلة المستقبل. وغيرنا ممن بت لا أذكر أسماءهم من إخواننا الصحفيين العرب.

تشعب الحديث وطال وتطرقنا إلى مجمل التفصيلات والقضايا الأساسية. قيل أمور كثيرة كان يحددها الوزير بأنَّها لإطلاعنا وليست للنشر ووافقنا. أذكر من القضايا أنَّ علاقات الفتور كانت تنتاب فرنسا بالجماهيرية الليبية، وأخبرنا الوزير أنَّ الفتور في طريقه إلى الزوال وسيعلن عن ذلك في حينه فالرجاء عدم النشر.

في الأسبوع التالي كان كل واحد منَّا قد نشر الأسرار التي سمعها على صفحات المجلة التي يعمل فيها، وخاصة خبر العلاقات الليبية ـ الفرنسية حتى أنَّ بعض الصحف العربية كتبت

في افتتاحيتها أنَّ فرنسا اعترفت مؤخراً بالحضور الكبير للصحافة العربية في الساحة الفرنسية.

ماذا كانت النتيجة؟

عتب شديد و«معاقبة» أبلغنا إياها ميشال ميناشوموف سكرتير الوزارة بوقف هذه اللقاءات حيث لا يودع العرب سرّاً.

فعندما يقابل وزير الخارجية الأميركية أو الفرنسية رؤساء تحرير كبريات الصحف دورياً، للتداول بالشؤون العامة الداخلية والخارجية، فإنَّما يضع الصحافة على مستوى أصحاب القرار وهو كذلك بالفعل. بهذا المعنى لا تعود مهمة الصحافة محصورة في اللهاث وراء الأخبار والأحداث، ومواكبتها وتتخطاها لتصبح مشاركة في صنع الأحداث وخلقها، فلا تعود تسأل عن الصحافي الذي يغطي موضوعاً ما، بل عن القادر على خلق الحدث وفلشه فوق أعمدة الصحف ومن على شاشات التلفزيون والوسائل الإعلامية كافة تحقيقاً لسلطات الإعلام الخاصة. ومهما كانت درجة خبرة الشخصية التي نقابلها، يبقى للسلطة الرابعة هيبتها لأنَّها سلطة السلطات، وتبقى الكلمة بالنسبة للناس مبعث رصانة وتهيب لدى قائلها. وقد يكون واحدنا قد جمع أفكاره ووضبها بدقة فائقة وبلاغة عالية، ولكنها تفقد نصف قيمتها الخام بحضور الشخص أمام عدسة الكاميرا أو بدخوله غرفة التسجيل جاهزاً لتلقي الأسئلة. مهمة الصحافي إذن مساعدة هذه الشخصية للشعور بالراحة والاستعداد بالكلام. فقد

يمهد للمقابلة بالتحادث في موضوعات سارة وخلق الشعور لدى الشخص بأحاديث تنبىء بأهميته وبأنَّ الصحافي صاحب ثقافة وإطلاع تمكنه من تبادل الأفكار والآراء. فالنرجسية ودغدغة «الأنا» قد تكون خاصية مشتركة لدى كل الأسوياء، ولكن الإفراط بهما عن طريق التجامل، والتحبب قد يثير لدى السامع شعوراً بالحذر وعدم الثقة لأنَّ التبجيل المفرط شكل من الاستهزاء المتذاكي.

إذا لم تتوفر هذه الأمور المزاجية التفصيلية، يمكن للصحافي المباشرة ببعض الأسئلة التي تظهر للشخصية اهتمام الصحافي به وملاحقته لأخباره، كأن يتكلم مثلاً في مضامين تصريحاته ومقابلاته بدقة ومعرفة تفصيلية مع إبداء بعض الملاحظات النقدية المهذبة. وهو أمر يعزز، من ناحية ثانية، الشخصية، فيظهر اعتزازه بمعلوماته ومواقفه، ومجمل الناس في هذا المجال يميلون إلى اعتراف الناس بمبادئهم وأفكارهم وأقوالهم وبراعتهم.

يتطلب الوصول إلى المعلومات يتطلب الصبر والوقت وموهبة الإصغاء إلى الآخر بتفهم كامل وتعاطف مهما كانت الأحاديث والأفكار والآراء بعيدة عن مبتغى الصحافي، وحتى ولو لم يكن الصحافي ميّالاً إلى الأمور الشخصية الاستطرادية فلا يجوز له إظهار استيائه أو تململه. وهنا تبرز أهمية الإصغاء الذي هو فن في حدّ ذاته. فالمقابلة مشاركة ذكية وليست منافسة صراعية. وهي تتطلب الانتقال من دور المحدث إلى دور

السامع بلطافة ولباقة. فالاستماع للآخر أمر ضروري حتى وإن خرج عن الموضوع، ودور الصحافي هو متابعة الحديث والقدرة إلى إعادته إلى المحاور الهامة بالنسبة إليه من دون أن يبدو سمجاً أو جافاً وقحاً.

ولا بدَّ من إعطاء الشخصية الوقت الكافي للإجابة على أسئلتنا دون إبطاء، لأنَّ التضييع غير اللازم للوقت ليس في مصلحة المقابلة. والمقابلة ليست زيارة اجتماعية. وهذا ما يسمى بضبط سياق الحديث من دون سيطرة أو فوقية أو ضعف ودونية.

وفن الإصغاء هو الموهبة الأصعب في أثناء إجراء المقابلة، لأنَّ وقت السماع لا يكون للتسمر في الجمود الأبله أمام من نقابل، وخاصة وأنَّ الناس يخاطبون بأيديهم وحواجبهم وسيجارهم كما يتخاطبون عن طريق اللغة. فهو وقت للسماع والملاحظة بالطبع، ذلك أنَّ حركة عفوية قد تكشفهم وتظهر عيوبهم؛ «كأنَّ يقوم مثلاً ذلك المتحدث بتمزيق الفوطة بين يديه» أو يرمي بالقلم جانباً بعصبية «أو يسحق عقب لفافته المنطفئة فعلاً، حيث نستدل من ذلك عن ثورة تصطخب في أعماقه، أو أن يقوم محدثنا في شد كم قميصه في أثناء الحديث أو يقوس حاجبيه، أو يلمسك باستمرار أثناء الحديث أو يجذبك من يديك وغير ذلك...»[1]. «الندع المتحدث

(١) المرجع السابق.

يتكلم ونحن نسترخي، بينما آلة التسجيل تدور، في حين أن ذاكرتنا تسجل كل حركة يقوم به المتحدث وتلاحق ابتسامته ونظراته ومسار أفكاره واهتزازات نفسه، ومشاعره وسلوكه، وهل هو يسيطر تماماً على نفسه، هل هو ذكي، قوي؟ أم غبي ضعيف؟ هل هو داهية أم يستقوي على ضعفه؟ هل يحتمي بنفسه أم يحتمي بسلطته؟.

. . . فالمقابلة كر وفر، هبوط وصعود، تقدم تتراجع، هجوم ودفاع تبعاً لشخصية المتحدث، وهي جوهر الحديث وسط معركة السؤال والجواب. . . والمقابلة لها صفة ذاتية. . . إنَّها حوار الطبع والتطبع والتكيف والتكييف للقبض على الشخص المطلوب إلى المحادثة حياً لا ميتاً. . .»[1].

وقد اختصر عوض حسين الشلالدة في كتابه «العلاقات الإنسانية ودورها في السلوك الإنساني» الضرورية في إجراء المقابلات وهي في الإنكليزية بمعنى الـ Human Touch وفصلها كما يلي[2]:

استمع إليه H = Hear him

---

(١) عوض حسين الشلالدة، العلاقات الإنسانية ودورها في السلوك الإنساني، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨١، ص: ٢٤.

(٢) Muscio. B., Ther influence of the Question, British Journal of psychologie, 1916, p. 351 - 389.

احترم شعوره	U = understand his feeling
حرِّك رغبته	M = Motivate his desire
قدِّر مجهوده	A = Appreciate his effort
مدَّه بالأخبار	N = News him
درِّبـــه	T = Train him
افتح عينيه أو أرشده	O = Open his Eyes
تفهَّم تفرده	U = understand his Uniqueness
اتصل بـه	C = Contact him
كـرِّمـه	H = Honor him

سابعاً: الأسئلـة

سبق الإشارة إلى أن الأسئلة المدونة سلفاً تنتج مقابلة جافة وباردة. هذا النوع من المقابلات يحجّم دور الصحافي، إذ غالباً ما يطلب السياسيون لائحة بالأسئلة قبل إجراء المقابلة. وهنا أيضاً تبرز براعة الصحافي وضرورة عدم تلكؤه في خرق هذا الجدار الوهمي الذي يقيمه السياسي حياله.

أما الأسئلة الحية فلا شروط نهائية لها وإنَّما توجيهات عامة قد تفيد في نجاح المقابلة:

١ ـ النتائج السلبية لطرح الأسئلة المباشرة الفجة وذات

الطابع الشخصي، إلاً إذا برز ميل لدى الشخصية بالاستعداد للتقارب من الآخر وذكر الحقائق المطلوبة. وغالباً ما تحد الأسئلة المباشرة من حرية المتحدث وتقيد حبه للسرد.

٢ ـ تحاشي طرح الأسئلة التي تجد أجوبتها لدى شخص آخر لأنَّه نوع من التوريط للشخص في توليد منازعات وصراعات مع الآخرين.

٣ ـ صياغة الأسئلة الباحثة عن معلومات جديدة تقدم بطريقة وباهتمام السائل بمصلحة المجيب وبما يقوله.

٤ ـ تجنب الأسئلة الجدية التي تتضمن إجابتها أو تكون إجاباتها لدي طرفٍ آخر والتي لا تثير لدى السامع إلاً المواقف السلبية.

٥ ـ يمكن مباشرة المقابلة مثلاً بأسئلة يرتاح الشخص في الإجابة عنها، ثم تمرر الأسئلة التي تستثيره كطريقة طبيعية للإدلاء بالمعلومات المطلوبة. فالأسئلة الجيدة لها لحظتها الخاصة لطرحها وفقاً لمسار العلاقة بين الاثنين، فالصحافي اللبق هو الذي يعرف ماذا يدور في رأس الآخر ومن هناك يبدأ، فيكون محاوراً محادثاً أكثر منه محققاً ومستنطقاً يحافظ على الآخر فلا يعمل على تعريته.

٦ ـ الإحجام أو الاحتفاظ بالأسئلة التي يكون الشخص قد أجاب عنها في أثناء استطراده في الجواب عن سؤال آخر، فلا تقوده إلى التكرار وإعادة الكلام في موضوع واحد وهو أمر

يباعد بين الناس ويعطي انطباعاً بأنَّ الصحافي غير مثقف وقابل للاستيعاب.

٧ ـ عادة طرح سؤالين أو أكثر في سؤال واحد وهذا ما يحصل في أثناء المقابلات الصحفية التي يقوم بها الصحافيون العرب، أمر شديد الأهمية لأنَّه يربك المقابلة، وبالأحرى يربك الشخص الذي يقوم بمقابلته، وهو إذ يجيب غالباً عن السؤال الأخير يطلب تذكيره بالسؤال الأول الذي قد ينساه الصحافي بدوره وهنا الإرباك الكبير.

٨ ـ لا جدوى من مباشرة السؤال بمقدمة طويلة يتخذ فيها الصحافي دور المدرس أو دور العارف والمحلل للأوضاع الذي يخجل من موقع السائل كأن يتكلم خمس دقائق في موضوع ما، وبعدها يطرح سؤاله. وهذا ما يتميّز به مارسيل غانم في برنامجه «كلام الناس» على شاشة الـ L.B.C.I. وكم من مقابلات نشهدها في الصحف تبدو فيها نصوص الأسئلة أوسع وأكبر من نصوص الأجوبة. والسبب يعود إلى أنَّ السياسيين مثلاً يمجون مواقف مشابهة ويهربون ظاهرياً من هدر الوقت، وغالباً ما يقاطعون الصحافي عند الإسهاب في مقدمات الأسئلة فيستبقون السؤال من أذهانهم، وهذا ما يوقع الصحافي أحياناً في نسيان صيغة السؤال الذي كان يود طرحه.

وقد يكون للسياسي ردة فعل مغايرة، إذ يتحول هو إلى السائل ويطلب من الصحافي الإجابة، آخذاً دور المدرس

الممتحن لثقافة الصحافي. وهذا ما يعرف بأسوأ أنواع المقابلات، وخاصة إذ كان الصحافي عاجزاً عن الإجابة على الأسئلة المطروحة.

حاول أحد الصحافيين أخذ دور المتفلسف في أثناء إجرائه مقابلة مع العميد ريمون إده في باريس الذي بدا متضايقاً من طريقة طرح الأسئلة. فسأل الصحافي في سياق الكلام عن دولة لبنان الكبير: هل تستطيع أن تسمي لي ما يعرف بالأقضية الأربعة؟ احمرّ الصحافي، وراح يذكر أسماء مناطق لبنانية كيفما اتفق. وكان رد فعل السياسي قوله: اذهب يا ابني تعلم تاريخ بلادك وتعال لأقابلك فيما بعد.

كن موجزاً في طرح أسئلتك إذاً، ولا تقل «سأحاول أن أكون مختصراً»، لأنَّ هذا التعبير يعني في أذهان الآخرين أنَّك ستقوم حتماً بمداخلة طويلة. ويلاحظ في أثناء المؤتمرات أنَّه عندما يقف شخص لمداخلة ما، ويباشر كلامه مطمئناً الحضور بأن سيكون مختصراً يذهب الحاضرون في التململ ورفع أنظارهم إلى سقف القاعة أو الرسم على الأوراق أمامهم حيال إطالته الحتمية المنتظرة.

٩ ـ لا أهمية للاعتذار من الآخر قبل طرح سؤال ما، لأنَّ السؤال سيطرح في جميع الحالات، فما هي قيمة الاعتذار إذن؟ ليس إلاَّ خللاً في علاقة بين اثنين. فالأسئلة التي تحمل شيئاً من الوقاحة يمكن طرحها دونما اعتذار ولكن بلهجة اعتذارية غير وقحة.

١٠ ـ عدم جدوى الكلام في القضايا المعروفة والمعللة سلفاً من قبل الشخص، وتحاشي الوقوف عند سؤال معين وتكراره، وخاصة تكرار أسئلة الآخرين. هذا ما يحصل غالباً عندما يقوم أكثر من صحافي في مقابلة شخصية واحدة، فيتناوبون في إدارة الجلسة وطرح الأسئلة. ويقف أحدهم في مرحلة من التعقيب ليكرر سؤالاً طرحه زميله وأجيب عنه، ولكن هنا يتدخل لإضافة قضية تفصيلية متعلقة بالموضوع عينه، فيلجأ بشكل عفوي إلى إعادة صياغة سؤال زميله وإجابة الشخص، ولكن على طريقته الخاصة، وأحياناً بشكل مغاير للواقع وهنا تطرح مشكلة كبرى في إدارة المقابلة.

١ ـ أنماط الأسئلة

الطريقة التي يوجه بها السؤال من حيث صوغه قد تؤثر في طريقة الجواب وهناك ٨ أنماط للأسئلة وفقاً لدراسة موزيو.

١ ـ أداة غير معرفة، مثلاً: هل رأيت...؟

٢ ـ أداة معرفة، مثلاً: هل رأيت أل...؟

٣ ـ أداة منفية غير معرفة، مثلاً: ألم تر...؟

٤ ـ أداة منفية ومعرفة، مثلاً: ألم تر أل...؟

٥ ـ أداة غير معرفة وموجهة. مثلاً: هل كان هناك...؟

٦ ـ أداة نفي غير معرفة وموجهة. مثلاً: ألم يكن هناك...؟

٧ ـ أداة خبر غير كامل. مثلاً: أكان هذا الشيء كذا أم كذا؟

٨ ـ أداة تضمين. مثلاً: أكان هذا الشيء كذا؟

وقيست الأجوبة بدرجات ثلاث: الحذر الإيحار والثبات. والحذر نسبة إلى الجواب الذي جاء على صيغة: لا أدري، بينما الإيحاء في التلميح إلى مضمون السؤال من دون جزم، والثبات قيس بنسبة الإجابات الصحيحة.

أثبتت الدراسة أنَّ أضعف صيغ الأسئلة وأقلها أمناً كانت أسئلة التضمين، وأكثرها ثباتاً صيغ التعليمات الذاتية التي لم تستخدم النفي ولا التعريف. وظهر في الدراسة أنَّه عندما ينكر شخص أنَّه عرف شيئاً أو رآه، فهو لا يجب بأنَّه لم يكن موجوداً، والرغبة في عدم إنكار وجوده لا يعني، بالطبع، اعترافاً ضمنياً بوجوده. إنَّها سلطة الأسرار.

وينتج عن تغيير نمط السؤال من التنكير إلى التعريف نقصاً في الإيحاء والثبات وتقليل الحذر، بينما تصدير النفي في صياغة السؤال يزيد من إيحاء الجواب وينقص من الحذر والثبات. وينقص الإيحاء والحذر والثبات عند تغيير صيغة التعليمات الذاتية إلى الموضوعية.

أما صيغة السؤال الذي يتضمن خياراً وغير كامل الاتصال، ففيه إيحاء بالجواب عال، يستعمله رجال الإعلان، ويؤدي إلى تقليل درجة الحذر وعدم المساس بدرجة الثبات. فالاختيار والمفاضلة سلطة مرغوبة لدى المتلقين.

وهذه الصيغة الأخيرة التي تشير إلى النمط السابع من الأسئلة قد تكون أفضل الأسئلة في الوصول إلى الحقائق وهي ما يعرف في الصحافة المبسطة بالسؤال الذي يبقى على نهايته مفتوحاً.

هذه الصيغة التي تترك الخيار للآخر لا تحمل تميزاً، أو تضع الشخص الذي تقابله في موقع الدفاع عن النفس، بل تجعله أكثر استعداداً للإدلاء بمعلوماته.

ثامناً: نهاية المقابلة

ثلاث ملاحظات أساسية حول نهاية المقابلة التي لا تنتهي:

١ ـ أن يأخذ الصحافي بكثير من الجدية لكل الكلام والتفاصيل التي تصدر عن الشخص الذي يقوم بمقابلته بعدما تكون المقابلة قد انتهت صورياً. فبعد زوال التوتر النفسي يصبح الإنسان أكثر ارتياحاً وبعيداً عن آلة التسجيل أو أمانة وسائل الإعلام التقنية، فيهفو أحياناً إلى إضافة أمور تفسيرية أو اعتراضية. والصحافي بالطبع، يتذكر أنَّ المقابلة التي أجراها لم تنتهِ حتى بعدما يكون قد مدَّ له يده للمصافحة والوداع. تقال أفضل الحقائق على الأبواب والأدراج.

والمقابلة بالمعنى الفلسفية قصة علاقة تطول وتنمو بين اثنين. **إنَّها فن صناعة الأصدقاء.**

سأل صحافي في مجلة «تايم» الأميركية الصحافية الإيطالية «أوليانا فالاتشي» وهي من أشهر صحافيات العالم وصحافييه، وأول صحافية حصلت على أول مقابلة من هنري كيسنجر، كما أنَّها قابلت الإمام الخميني وحسرت عن رأسها أثناء في المقابلة، وقابلت الرئيس الليبي معمر القذافي، وهي معروفة بصيتها الذائع في مجال فن المقابلات، سألها عن الطريق الخاصة التي تعتمدها في المقابلات. لقد عملت الإعلامية رلى معوض في شاشة الـ O.T.V بنصيحتي هذه، وكانت من متخرجات كليّة الإعلام، وهو ما ساعدها على اختراق الآخر عن طريق الصعورة. لكنها عارضت ملاحظتي حول المناسبة أو التناغم بين اللباس الخاص، المقابلة ونوعية الأشخاص الذين تقابلهم، فراحت ترتدي طقم الجينز العتيق في الكوكتيلات والمناسبات الرسمية، الأمر الذي لفت إليها الأنظار، وقد أطرى فخامة رئيس الجمهورية الياس الهراوي شجاعتها وجرأتها في اللباسلما يكسر القواعد المؤلوفة.

وأجابت: «المقابلة، بالنسبة لي مناقشة برلمانية، وكل مقابلة هي صورة لنفسي. بل هي مزيج غريب لأفكاري ومزاجي وصبري. وهذه كلها مبعث للأسئلة.

أنا أتورط، لأنَّ مقابلاتي... ليست باردة أبداً، ولأنني أقع في الحب مع الشخص الذي هو في مواجهتي لكثرة ما أعرف عنه... المقابلة بالنسبة لي ـ تابعت فالاتشي ـ هي معركة، المقابلة هي قصة حب...

.«An Interview is a love story»

٢ ـ يجب ألا يغفل الصحافي في الوسائل المكتوبة تأمين الصور الإثباتية لمقابلته، والأفضل أن يكون المصور بصحبته، وتتم عملية التقاط الصور قبل المقابلة أو في نهايتها، لا أن يذهب المصور وحيداً. ومن المفضل أكثر أن يباشر اللقاء بالتقاط الصور له وتخييره أين يجب أن يأخذ هذه الصور، خلف مكتبه، أمام خريطة في مكتبه... إلخ. فالصورة تزيل الكثير من الحواجز التي يقيمها الآخر مع الصحافي. إنَّها محك نرجسيته، وطريق مبرر للدخول إلى عالمه، بأقل عدد ممكن من العقد والارتباك. فالصحافي، بهذا المعنى، هو الشاهد القوي، على تعرية «الأنا» بأقدار متفاوتة وفقاً للأشخاص. فالصور رغم أنَّها تنقل الواقع بجماله وقبحه إلاً أنَّ لماكينة التصور قوة تثقب الجدار النفسي عن طريق الضوء وتدخلنا إلى الأعماق. بهذا المعنى نفهم أنَّ كبار الصحفيين في العالم هم بأنفسهم مصورون يدخلون مكاتب المشاهير والآخرين شاهرين عدسات تصويرهم في وجه من يقابلون. لقد عملت الإعلامية رلى معوض وهي في شاشة الـ O.T.V، بنصيحتي هذه، وكانت من متخرجات كليّة الإعلام، وهو ما ساعدها على اختراق الآخر عن طريق الصورة. لكنها عارضت ملاحظتي حول المناسبة أو التناغم بين اللباس الخاص بالمقابلة ونوعية الأشخاص الذين تقابلهم، فراحت ترتدي طقم الجينز العتيق في الكوكتيلات والمناسبات الرسمية، الأمر الذي لفت إليها الأنظار، وقد أطرى فخامة

رئيس الجمهورية الياس الهراوي على شجاعتها وجرأتها في اللباس بما يكسر القواعد المألوفة.

ـ تسجيل كل الملاحظات الراسخة في الذاكرة وتدوين المعلومات في أقرب فرصة. فالتذكر والاستعادة والاسترجاع أمور تفترض الكثير من الحذف والنسيان والإضافات غير الصحيحة، والإسقاطات الخاطئة.

وإذا نسي الصحافي أمراً مهماً في أثناء كتابة نص المقابلة، فعليه عدم التوقف عند الأمر المنسي والإلحاح على التذكر، لأنَّ فترة بسيطة من الكمون تعيده تلقائياً وبدون أي جهد إلى هذا الأمر.

لماذا فن المقابلة الصحافية؟

لأنَّها الطريق إلى فنون الكتابة وخصوصاً الإعلامية منها.

المصادر والمراجع

العربيـة

جوزيف فندريس: **اللغـة**، تعريب عبد الحميد الداخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٥٠.

د. نيسم الخوري: **الإعلام في لبنان وانهيار السلطات اللغوية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥.

د. نسيم الخوري: **فنون الإعلام والطاقة الاتصالية**، دار المنهل اللبناني، بيروت، ٢٠٠٥.

د. سناء خطَّاب: **ألف باء الكومبيوتر**، ط ١، دار بركات، دار المعهد العربي، بيروت، ١٩٩٧.

د. إنطوان غطّاس كرم: **عبد الله**، ط ٢، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩.

د. صبحي الصالح: **دراسات في فقه اللغة**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦.

ر. هـ. روبنز: **موجز تاريخ علم اللغة**، ترجمة أحمد عوض، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٧،

عالم المعرفة، العدد ٢٢٧.

ابن هشام: **كتاب سيرة رسول الله**، الجزء ٢، لا. م. القاهرة، ١٣٣٦ ـ ١٣٣٧.

سيّد محمد غنيم: **النمو العقلي عند الطفل في نظريات جان بياجيه**، حوليات، عدد ١٣، جامعة عين شمس، كلية الآداب، القاهرة، ١٩٧٢.

الموسوعة الفلسفية: معهد الإنماء العربي، مجلد ١، بيروت، ١٩٨٦.

محمود السيد أبو النبل: **علم النفس الاجتماعي**، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٤، ١٩٨٥.

الأونسكو: **أصوات متعددة وعالم واحد**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١.

جيهان أحمد رشتي: **الأسس العلمية لنظريات الإعلام**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٨.

.**الإعلام ونظرياته في العصر الحديث**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١

أنيس مسلم: **وسائل الإعلام بين الرأي العام والإرادة الشعبية**، التعاونية اللبنانية للتأليف والنشر، بيروت، ١٩٨٥.

فيليب غايار: **تقنية الصحافة**، ترجمة فادي الحسيني، دار عويدات، بيروت، ١٩٨٣.

والتر فانديك بنجهام وبروس فكتور مور: **سيكولوجية المقابلة**، ترجمة فاروق عبد القادر وعزّت سيّد إسماعيل، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦١.

عوض حسين الشلالدة: **العلاقات الإنسانية ودورها في السلوك الإنساني**، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨١.

د. نسيم الخوري: **العرب والتغيير والغير**، محاضرة في ڤيينا، النمسا، ٤ ـ ٧ نيسان ١٩٨٥، مؤتمر فكرة سيادة الإنسان من أجل الاستقلال والسلام.

إبراهيم إمام: **الإعلام والاتصال بالجماهير**، مكتبة الأنجلو ـ مصرية، القاهرة، ١٩٦٩.

الأجنبية

Nassim Khoury: **Introduction à la modérnité Arabe**, Dar Alhadatha, Beyrouth, 1986.

Oswald Spengler: **Le déclin de l'occident**, vol 1, Forme et réalité, traduction Tazerout, Gallimard, Paris, 1945.

Jean Perrot: **La linguistqiue**, P. U. F. Que sais-je, Paris, 1953.

Roland Laing: **Nœuds**, trad. de l'anglais par Claude Elsen, Stock plus, Paris, 1977.

Odile Ambry: **Internet, l'aventure fulguante du réseaux des réseaux**, culture et societé, No. 164, 18 Fév. 1998.

Emile Servan Shreiber: **Mon ordinateur m'a souri**, psychologies, No. 180, No V. 199.

James Carey: **Communication as Culture**, Uniwin human, Boston, 1988.

Eduard Hall: **La dimension Cachée**, trad. de l'anglais par Emélie petita, Seuil, Paris, 1977.

Bernard Voyenne: **L'information aujourd'hui**, Armand Colin, 1979.

Sigmund Frend: **Introduction à la psychanalyse**, payot, Paris, 1965.

P. Watzlawick: **Une logique de la communication**, trad. de l'anglais par Janine Morche, Seuil, Paris, 1972.

Philippe Guillaume: **Les mots et les hommes,** les procédés de la Comuniaction, économica, 1988.
Elie Reboul: **L'information**, éd. larousse, Paris, 1977.
Colette Bizouard: **Vivre la communication,** 2ème éd. chronique sociale de France, Paris, 1980.
Jean Caune: **Esthétique de la communication**, P. U. F. Paris, 1997.
Michel Souchon: **Diffusion de l'information et rapports d'autorités,** études, Paris, 1970.
Julia Kristeva: **Le Langage cet inconnu, seuil, Paris, 1981.**
Roland Barthes: **Système de la mode**, seuil, Paris, 1967.
A. Martinet: **Eléments de linguistique général**, A. colin, Paris, 1970.
Francois Flahaut: **Le parole intérmédiaire**, Seuil, Paris, 1979.
R. Jakobson: **Essais de linguistique générale**, Minuit, Paris, 1964.
B. Muscio: **Ther influence of the question**, British journal of psychologie, 1916.
André-Jean Tudesq: **La presse et l'événement**, Mouton, Paris, 1973.
Althuser: **Idéologie et Idéologiques d'état,** La pensée, No. 151, juin, Paris, 1970.
May Gebrane: **La situation conflictuelle de la femme libanaise**, Thèse de doctorat en psychologie clinique, Paris VII, 1980.
Marie christine D'unrug: **Analyse de contenu**, Edition universitaire, Paris, 1974.
Ralf Wesenfelder: 50 Trucs pour réussir une réunion, les éditions d'organisation, Paris, 1982.

المحتويات



بريشة حبيب حداد

صدر للمؤلف

الدكتور نسيم الخوري

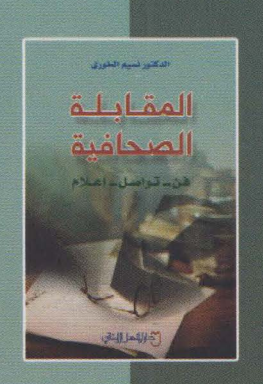
لبناني، باحث وأستاذ محاضر في كلية الإعلام

drnassim@hotmail.com

Nassim.khoury@Gmail.com

- **ترانيم الأمة الخرساء (شعر)**، دار نعمان للثقافة، بيروت، ١٩٧٩.
- **عدم الانحياز**، منشورات العالم العربي، باريس، ١٩٨٢.
- **إسرائيل إلى أين؟** (مترجم)، دار المشرق العربي الكبير، دمشق - بيروت، ١٩٨٥.
- **Introduction à la modenrité Arabe** (مدخل إلى حداثة العرب) بالفرنسية، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٦.
- **معاني الأحلام بين الوعي واللاوعي**، الشركة الشرقية للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٩.
- **لم يبقَ إلا اللغة**، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٣.
- **المقاومة تشرق من الجنوب**، دار إعلامك، بيروت، ١٩٩٤.
- **مذكرات وطن مستورد**، دار إعلامك، بيروت، ١٩٩٤.
- **الإعلام الصهيوني والفلتان الأخلاقي**، دار اللواء للصحافة والنشر، بيروت، ١٩٩٨.

- **فنون التحرير الإعلامي**، دار إعلامك، بيروت، ٢٠٠٤.
- **الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥.
- **الزواج، مقاربة نفسية اجتماعية**، دار المنهل اللبناني، بيروت، ٢٠٠٨.
- **الكتابة الإعلامية**، دار المنهل اللبناني، بيروت، ٢٠٠٩.



المقابلة الصحافية

يتوخى هذا الكتاب البحث في منطق المقابلة من حيث هي فن وتواصل وأعلام وتفاعل بين السؤال والجواب.

ينقسم البحث إلى جزئين: الأول يضع القواعد والأصول في المقابلات في معانيها الواسعة فيتناول التواصل والاتصال والإعلام، كما يتطرق إلى قاعدة الاتصال الذهبية في تقديس المثلثات حيث الواحد زائد واحد يساوي ثلاثة وربُما مئة وليس اثنين.

أما الجزء الثاني فيبحث في المقابلة الصحافية على المستوى المهني، وهو صالح لطالبات وطلاب كليّات الإعلام والمبتدئين كما للخبراء والمشهورين من الصحافيين في مهن الصحافة والإعلان والعلاقات العامة.

ليست المقابلة إعلاماً وحسب بل تواصلاً وفناً قائماً في حدٍّ ذاته. المقابلة قصة حب :
An interview is a love story